دار الحديث الكاملية
ودورها في خدمة السنة النبوية

بقلم

الدكتور/ أحمد نبوي أحمد مخلوف

مدرس الحديث وعلومه بكلية أصول الدين والدعوة بأسيوط

ملخص بحث:

دار الحديث الكاملية ودورها في خدمة السنة النبوية

بقلم

الدكتور/ أحمد نبوي أحمد مخلوف

مدرس الحديث وعلومه بكلية أصول الدين والدعوة بأسيوط

يُعَدُّ هذا البحثُ أولَ دراسة مفردة – فيما أعلم – تتناول تاريخَ «دار الحديث الكاملية»، التي بناها الملك الكامل بالديار المصرية، سنة ٦٢١هـ، والدَّورَ الكبيرَ الذي أدته في خدمة السنة النبوية المطهرة؛ من خلال تدريس أكابر حفاظ الحديث فيها، ومن خلال ما أنتجه هؤلاء الأئمةُ من كتب ومؤلفات، ساهمت في إثراء الحركة الحديثية، وعقد مجالس السماع والإقراء، والتحديث والإملاء.

وقد خلص البحث إلى عدد من النتائج أهمها: عِظمُ الدَّور الذي قامت به (الكاملية) في خدمة السنة على مدى أكثر من ثلاثة قرون، وأنها كانت أنموذجًا جليلًا للعمل المؤسسي الخيري، الذي تعاون في إنجاحه طوائفُ المجتمع المختلفة: الملوك والأمراء وكبار موظفي الدولة والعلماء والتجار.

وأن أسباب نجاحها في هذا الدَّور هو اعتمادُها على ميزانية مستقلة عن طريق الوقف المخصص لها، واعتمادُها في اختيار مدرسيها وشيوخها على (الكفاءة العلمية)؛ وذلك في أغلب مراحلها التاريخية.

فكانت بهذا كلِّه صفحةً مشرقة من الإشعاع الحضاري العلمي، ليس في تاريخ المسلمين فحسب، بل في تاريخ الإنسانية كلها.

Abstract

Dar al-Hadith al-Kameliyah and its role in the service of the Prophet's Sunnah

By

Dr. Ahmed Nabawi Ahmed Makhlouf

Modern teacher and science at the Faculty of Religion and Da'wa Assiut

As far as I know, his paper can be considered the first individual study tackling the history otf Dar Al-Hadith Al-Kameliyah which was established in Egypt by King Al-Kamel in 621 AH. It also shows the great role it played in service of the Holy Prophetic Sunnah by means of employing great memorizers of the Qur'ān as its instructors. Those leading scholars have written many books and publications, which enriched the Hadith movement, holding sessions for listening, reciting, narrating and dictating hadiths.

The study has reached a number of conclusions, highlighting the immense role Al-Kameliya played in serving the Sunnah for three decades. Al-Kameliyah was a magnificent example of a charitable organization. Various community sectors, including kings, princes, scholars, top officials and merchants, united to make it a great success.

Its reliance on an independent budget, provided through its specified donation, is one of the reasons why it succeeded in playing that great role. Another reason would be in selecting its teachers and Sheikhs on the basis of their academic efficiency throughout all the historical phases. Consequently, it became an illuminating civilizational scientific breakthrough, not only in the Islamic history but in the human history at large.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الهادي إلى سبيل الرشاد، الذي جعل من خصائص هذه الأمة علمَ الإسناد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير العباد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم المعاد.

أما بعد:

فقد هيأ الله عز وجل للسنة المشرفة أسبابا لحفظها، وقيض لها عبر العصور جنودًا مخلصين لنصرها، وكان من هذه الأسباب: أن سخر سبحانه وتعالى أماكن كثيرة، لدراسة الحديث وعلومه، والعكوف عليه ليل نهار، وصباح مساء.

ومن هذه الأماكن: «دار الحديث الكاملية»، بالديار المعمورة المصرية، التي بناها الملك الكامل سنة ٦٢١هـ، لتكون أول دار للحديث في مصر، وثاني دار في بلاد الإسلام، بعد الدار «النورية» التي بناها السلطان نور الدين محمود زنكي في أرض الشام.

قال المقريزي: «وهي ثاني دار عملت للحديث[١]؛ فإن أوّل من بنى دارًا على وجه الأرض، الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق»[٢].

(١) وإن كان الدكتور بشار عواد معروف يرى في كتابه «المنذري وكتابه التكملة لوفيات النقلة» (ص ١٢٩): أن هناك دُورًا سبقت الكاملية في الإنشاء، كدار الحديث المظفرية، في الموصل. ومهما يكن من شيء فالثابت الذي لا خلاف فيه، أن الكاملية هي أول دار حديث بالديار المصرية، وهذا هو ما يهمنا في المقام الذي نحن فيه.

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/ ٢١٩)، وانظر: حسن المحاضرة (٢/ ٢٦٢).

وقد دفعني إلى اختيار الدار الكاملية للكتابة عنها، عددٌ من الأسباب؛ منها:

١- أنها أول دار للحديث في مصر، ولم أر أحدًا - فيما وقفت عليه - أفردها بالدراسة.

٢- عظمة الأئمة الذين تولَّوا التدريس فيها من أمثال: المنذري، والرشيد العطار، وابن دقيق العيد، والعراقي، وابن حجر، والسخاوي، وغيرهم من قبل ومن بعد، مما يدل على أنها كانت مركز إشعاع حضاري، على مدى ثلاثة قرون من الزمان.

٣- التعرف على نظم التعليم فيها، وكيفية تنظيمها الإداري، ومصادر تمويلها، وطرق اختيار الأساتذة والمدرسين فيها، مما يكشف لنا عن صفحات مشرقة ناصعة في تاريخنا المشرق الزاهر، نحن الآن في أمس الحاجة إلى استكناه حقيقته، والغوص في أعماقه مرة أخرى.

من هنا جاء هذا البحث الذي سميته: «**دار الحديث الكاملية، ودورها في خدمة السنة النبوية**».

وقد قسمته إلى: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: وهي تلك التي بين يديك.

والتمهيد: دُور الحديث النبوي في مصر والعالم.

والمبحث الأول: التعريف بدار الحديث الكاملية

والمبحث الثاني: العلماء الذين درّسوا فيها.

والمبحث الثالث: لمحات في بيان أوجه خدمتها للسنة النبوية.

والخاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج، التي توصلت إليها.

والله تعالى أسأل: أن يرزقنا الإخلاص والقبول.

وصل اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

التمهيد[1]

دُور[2] الحديث النبوي في مصر والعالم الإسلامي

(دُور الحديث) عبارةٌ عن مدارسَ خاصةٍ، ناتجة عن الخلافات المذهبية التي أحدثها التطور الفكري والتعليمي في المجتمعات والمعاهد الإسلامية، وهي ذات مكانة مرموقة في نفوس المسلمين، باعتبارها مدارسَ الحديث النبوي الذي هو العنصر الثاني للتشريع من جهة، وباعتبارها من جهة أخرى مراكزَ الثقافة الأصيلة الخيّرة، ومنابع العلم الإسلامي، المطبوع بالطهر والعفاف، والحامل معه في طياته كل ما يبحث عنه عالمنا اليوم، من وسائل السعادة والطمأنينة، والحضارة والسلام.

ولما تعاقبت الأحداث المتلاحقة على العالم الإسلامي، ومنها الحروب مع التتار والصليبيين، والمد الشيعي عن طريق الحكم الفاطمي في مصر والشام: فكر نور الدين محمود زنكي في إنشاء معاهد علمية خاصة، لم يسبق لها مثيل في العالم الإسلامي، من حيث تنظيمُها والغايةُ منها، وهذه المعاهد هي التي تحمل اسم (دور الحديث) وأول دار عرفت منها ونظمت تنظيما خاصا، هي دار الحديث النورية بدمشق سنة ٥٦٩هـ، ثم ظهرت بعدها دار الحديث الكاملية بالقاهرة سنة ٦٢١هـ، ثم ظهرت بعدهما دار الحديث الأشرفية بدمشق سنة ٦٢٦هـ.

---

(١) مستفاد مما كتبه الأستاذ حسين وكاك في كتابه المهم: «دور الحديث في العالم الإسلامي»، (ص٦٧- ١١٨)

(٢) المقصود بـ «دور» هنا: جمع دار.

وهذه الدور الثلاثة هي التي حازت الأسبقية التاريخية، والشهرة العريضة في العالم الإسلامي، ثم ظهرت بعدها دور أخرى للحديث، في مصر والشام والعراق وتركيا، تسير على منوالها.

ولم يكن العالم الإسلامي يوم أنشئت دور الحديث، خَلوًا من المؤسسات التعليمية، ولا فقيرًا من العلم والعلماء، بل كان زاخرا بالمدارس والمكتبات، ولكن كانت الغاية الأولى من إنشاء دور الحديث، هي تقوية الجبهة السنية، في مواجهة الجبهة الشيعية بعد زوال حكم الفاطميين.

و«دور الحديث» مؤسسات تعليمية عليا، ذات أهمية كبرى؛ بحيث لا يتولى الإشراف عليها، والتدريس بها، إلا من عُرف بالعلم، وشُهد له بالتفوق، واستوفى شروط الواقفين والمؤسسين، ووافق على توليته العلماء والملوك والأمراء، وهي تتمتع بالتقدير والاحترام والاستقلال، ولها أنظمة داخلية ثابتة، ومناهج تربوية مفيدة.

وكان لها دور فعال في المجتمع؛ من نشر مكارم الأخلاق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتوجيه الناس وإرشادهم، إضافة إلى دورها التعليمي الأصيل.

وكانت الميزة الكبرى التي تميز دور الحديث عن غيرها من المدارس، هي ظاهرة الأوقاف الخاصة بتمويلها، التي يحبسها عليها المنشيء، سواء أكان أميرًا أم غيره من المحسنين، مما جعلها تتمتع باستقلال في ميزانيتها، وكان لها نظار مشرفون على تنظيم هذه الموارد، وأوجه صرفها.

وكان منصب (المشيخة) في دور الحديث هو أكبر منصب تعليمي وديني؛ ولذا كان لا يصل إليه من العلماء، إلا من فاق أقرانه في الحفظ والنباهة، والتمكن من الحديث وعلومه.

وفي بعض الأحيان كانت تقوى الأغراضُ الشخصية، ويتناسى الناس شروط الواقف في اختيار الشيخ المطلوب، فتنزع المشيخةُ من بعض الأكْفاء، وتسند لمن لا يصلح لها ولا تصلح له، كما حدث مع الحافظ السخاوي، أو يقوى التنافس الشخصي بين متكافئين من العلماء، فيحدث الصراع بينهما على مشيخة دار الحديث، ويدّعي كل منهما أنه أجدر من غيره، كما وقع بين الحافظين: الولي العراقي وشيخه ابن الملقن، وسيأتي كل ذلك.

ولا يقتصر غالب شيوخ دور الحديث على مهمة واحدة، وفي مؤسسة واحدة، بل كانوا يعملون في عدة مدارس، ويتنقلون من مدينة إلى أخرى، كما يفعل أساتذة الجامعات في العصر الحاضر.

وكان الطلاب يلتحقون بها، دون النظر إلى جنس أو لون، ولهم مسكن خاصٌّ فيها، أو في بنايات ملحقة بها؛ فكان لهذه (الدور الحديثية) قصبُ السبق في إرساء عدد من النظريات، التي تبحث عنها الإنسانية في كل عصر، مثل: حرية الفكر، ومجانية التعليم، ونظام المدن الجامعية، وتكافؤ الفرص، والمساواة في خدمة المواطنين، والدفاع عن مصالح المسلمين، وغير ذلك من القيم والمثل الإنسانية الرفيعة.

وأقول أخيرا: لقد كانت هذه (الدور الحديثية) درة فريدةً في جبين الإنسانية، وصفحة مشرقةً، من دفتر كبير مملوء بالنور والمجد، في حضارتنا الإسلامية، قمينٌ بنا أن نقلّب صفحات هذه الدفاتر مرة أخرى، ونستلهمَ من ضيائها وإشراقها، ما ينير لنا الطريق.

المبحث الأول

التعريف بدار الحديث الكاملية

أتناول في هذا المبحث تعريفا موجزًا، بدار الحديث الكاملية من حيث؛ تأسيسها ونشأتها، ونظامُها الإداري، وما يتعلق بكل ذلك، فأقول:

* **تأسيسها**:

في سنة ٦٢١ إحدى وعشرين وست مئة، بنى الملك الكامل دار الحديث الكاملية، وجعل أبا الخطاب بن دِحْية شيخَها[١].

والملك الكامل هو: السلطان الكبير، الملك الكامل، ناصر الدنيا والدين، أبو المعالي، وأبو المظفر محمد ابن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب، وهو خامس ملوك بني أيوب الأكراد بديار مصر.

ولد سنة ٥٧٦ أو ٥٧٣ على الخلاف في ذلك، وتوفي سنة ٦٣٥، وهو من أقران أخويه المعظم والأشرف، وكان أجلَّ الثلاثة، وأرفعَهم رتبة.

وتملك الديار المصرية أربعين سنة، شَطرها في أيام والده الملك العادل؛ حيث إن العادل قسم الممالك فى أولاده؛ أعطى المعظّم عيسى دمشق، وأعطى الأشرف موسى الشرق، وأعطى الملك الكامل محمدا هذا مصر، وصار هو يتنقّل فى ممالك أولاده، والعمدة فى كلّ الممالك عليه، إلى أن مات الملك العادل تفرّد الملك الكامل محمد بالخطبة فى ديار مصر وأعمالها،

(١) تاريخ الإسلام (١٣/ ٦٣١)، البداية والنهاية (١٧/ ١٢٩)، حسن المحاضرة (٢/ ٢٦٢).

واستقلّ بأمورها وتدبير أحوالها، وذلك من يوم وفاة والده، وهو من يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة من سنة ٦١٥هـ.

وكان عاقلا، مهيبا، كبير القدر، ذا بأس شديد، عادلا، منصفا، له حرمة وافرة، وسطوة قوية، وكانت الطرقات في زمانه آمنة، والرعايا متناصفة، لا يتجاسر أحد أن يظلم أحدا.

وكان محبا في الحديث وأهله، حريصًا على حفظه ونقله، وللعلم عنده سوقٌ قائمة على سوق خرّج له الشيخ أبو القاسم ابن الصفراوي أربعين حديثا سمعها منه جماعة.

وكان معظّمًا للسنة وأهلها، راغبًا في نشرها والتمسك بها، محبًّا لمجالسة العلماء، والكلام معهم حضرا وسفرا، ويسألهم أسئلة مشكِلةً، وله كلام جيد على صحيح مسلم[1].

ونتيجة لهذا الاهتمام بالعلم، ورغبة في نشر السنة النبوية، بنى هذه الدار؛ لتكون أولَ دار للحديث في الديار المصرية.

*** اسمها**:

سميت دار الحديث بـ(الكاملية)؛ نسبة إلى مؤسسها، وتُذكَر في كتب التاريخ والتراجِم باسم: (دار الحديث الكاملية)، أو: (المدرسة الكاملية).

(١) انظر: النجوم الزاهرة (٦/ ٢٢٧)، العبر (٣/ ٢٢٤)، سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٢٧)، البداية والنهاية (١٧/٢٣٥).

* **موقعها**:

قال المقريزي: «تقع بخط بين القصرين من القاهرة»[١].

قلت: والموقع الحالي لها: هو محافظة القاهرة، حيّ الجمالية، شارع المعز لدين الله الفاطمي.

* **أوقافها**:

لما بنى الكامل هذه الدار، وقفها على المشتغلين بالحديث النبويّ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها الرَّبع الذي بجوارها على باب الخرنفش، ويمتدّ إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر، وهذا الرَّبْع من إنشاء الملك الكامل، وكان موضع من جملة القصر الغربيّ، ثم صار موضعا يسكنه القمَّاحون، وكان موضع المدرسة سوقا للرقيق ودارًا تعرف بابن كستول[٢].

* **ملامح من نظامها الإداري**:

كان للدار الكاملية – وكذلك لكل الدور التي جاءت بعدها – نظام إداري يأتي على قمته «شيخ الدار»، ويأتي بعد ذلك: الإمام الذي يصلي بالناس، ومعيد الدرس، وخازن الكتب؛ إلى غير ذلك.

وكان لها أيضا نظامها المالي الناجح الذي يعتمد على نظام الوقف، ويديره موظف يسمى: ناظر الوقف، وله نائب يساعده، وقيم يباشر العمل، وإليك شيئًا من ملامح ذلك النظام الإداري والمالي:

---

(١) خطط المقريزي (٤/ ٢١٩).

(٢) خطط المقريزي (٤/ ٢١٩).

- **الشيخ**:

شيخ الدار هو أعلى مسئول فيها، وقد ولي الكامليةَ عددٌ من النجوم اللوامع، والكواكب السواطع، في سماء المحدثين والحفاظ؛ من أمثال: المنذري وابن دقيق العيد والعراقي وابن الملقن وابن حجر والسخاوي، وغيرهم ممن سيأتي بيانهم في المبحث التالي.

- **الإمام**:

ومهمته إقامة الشعائر الدينية، وإمامة الناس في الجمع والجماعات، ومن أشهر من تولى إمامة الكاملية: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، قال السخاوي: «كان يحضر عند شيخنا وغيره، وأمَّ بالكاملية، وكان خيِّرا، وصفه البرماوي في إجازة ولده بالعلم والفضل»[(١)]. وكان إمامَ الكاملية هو وأبوه وجده[(٢)]، وكذلك وليها ولده وحفيده.

أما ولده فهو: الكمال محمد بن محمد بن عبد الرحمن، (ت ٨٧٤)، المعروف بـ(بابن إمام الكاملية)؛ والذي ولي مشيختها أيضا، كما سيأتي في موضعه. وأما حفيده فهو: محمد ابن الكمال (ت ٨٧٦)، الذي كان ينوب عن أبيه في إمامة الكاملية غالبا[(٣)].

(١) الضوء اللامع (٧/ ٢٩٤).
(٢) الضوء اللامع (٩/ ٩٤، ٩٥).
(٣) الضوء اللامع (٩/ ٢٢٥).

- **المعيد**:

معيد الدرس: «عليه قدر زائد على سماع الدرس: من تفهيم بعض الطلبة، ونفعهم، وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة»[١]. وممن تولى الإعادة في الكاملية:

محمد بن الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري – الذي كان شيخا لها – وقد مات سنة ٦٤٣، في حياة أبيه.

ولما مات أسند المنذري وظيفة المعيد لتلميذه – الحافظ الكبير فيما بعد – شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطيّ (ت ٧٠٥)[٢].

ومنهم أيضا: الحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس (ت ٧٣٣)، ولّاه شيخُه ابن دقيق العيد، الإعادة[٣].

ومنهم: أبو الفتح ابن الخضري (ت ٨٧٢)، فقد ذكر السخاوي أنه ولي الإعادة بالكاملية، وغيرها[٤].

- **خازن الكتب**:

وهو بالمصطلح المعاصر (أمين المكتبة)؛ وكانت وظيفته مع الكتب: «الاحتفاظ بها، وترميم شَعَثها، وحبكُها عند احتياجها للحبك، والضِنَّة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدم في العارية الفقراء

(١) معيد النعم ومبيد النقم (ص: ٨٥).
(٢) الوافي بالوفيات (١٩/ ١٢).
(٣) الدرر الكامنة (٥/ ٤٧٧).
(٤) الضوء اللامع (٦/ ٢٦٣).

الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء. وكثيرًا ما يشترط الواقف ألَّا يخرج الكتاب إلَّا برهن يحرز قيمته»[١].

وممن تولى هذه الوظيفة في الكاملية: الإمام المحدث شرف الدين الميدومي (ت ٦٨٣)، والذي صار شيخا لها بعد ذلك، كما سيأتي. قال الصفدي: «ولي خِزَانة كتب الكاملية، ثم طُلب لمشيختها فامتنع، ثم وليها إلى أن مات»[٢].

- **الناظر**:

ناظر الوقف من حقِّه العمارة والتنمية، وهو المسئول عن شئون الصرف وجهاته؛ وممن تولى نظارة الكاملية: خليل بن مودود المصري (ت ٧٧٦)، وكان من أهل العلم؛ سمع صحيح البخاري، وحدث بثلاثياته، قال التقي الفاسي: «وكان ناظر دار الحديث الكاملية بالقاهرة»[٣].

- **القيم**:

هو من يباشر العمل فيها، وهو دون الناظر، وممن كان قيما على الكاملية:

عبد الله بن محمد، جمال الدين ابن معين الدين، قال ابن حجر: «القيم بالكاملية وبالجامع الأقمر»[٤]. وكان من المشتغلين بالعلم[٥].

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم (ص: ٨٧).
(٢) الوافي بالوفيات (٢/ ١٠).
(٣) ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد (١/ ٥٢٦).
(٤) الدرر الكامنة (٣/ ٨٣).
(٥) الضوء اللامع (١٠/ ٤٤)، (٢/ ٣٠٠).

و: محمد بن غالي الدمياطي (ت ٧٤١)، قال السبكي: «نائب الحسبة، وكان يجلس بحانوت الشهود، ويباشر دار الحديث الكاملية ويحب التحديث»[١].

و: ابن بوز المصري (ت ٧٩٠)، قال ابن حجر: «وكان رئيس القومة بالمدرسة الكاملية»[٢]. وكان مشتغلا أيضا؛ فقد سمع وحدّث.

و: محمد بن محمد بن عثمان الأصيلي (ت ٨٦٤)، قال السخاوي: «باشر الكاملية والقطبية وغيرهما، وأتجر فنمت دريهماته، واشترى الأملاك، وعمل قبة فسقية الكاملية، وسبعا فيها، وغير ذلك من القربات، وحج وجاور مدة، وكان مديما للانجماع بخلوته في الكاملية»[٣].

- **النقيب**:

وهو المرتّب الذي يرتب المواعيد (الدروس)، وأشهر من تولى نقابة الكاملية: الحافظ سراج الدين البلقيني، قال تلميذه الحافظ ابن حجر: «وسكن الكاملية مدة، وكان نقيب الحديث بها عند القاضي عز الدين ابن جماعة، وكان يحكي أنه أول ما قدم الكاملية، طلب من الناظر بيتا، فلم يعطه، فجاء شخص فمدحه بقصيدة، فقال له: قد حفظتها من هذه المرة، فقال الناظر: إن كان كذلك أعطيتك بيتا، قال: فأوردتها له سردا، فأعطاني بيتا»[٤].

(١) معجم الشيوخ للسبكي (ص: ٤٣٣).
(٢) الدرر الكامنة (٥/ ٣٠٧).
(٣) الضوء اللامع (٩/ ١٣٦).
(٤) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٢/ ٢٩٧)، وانظر: الضوء اللامع (٦/ ٨٦).

- **النزلاء**:

نزلاء الكاملية وسكانها هم الطلاب والشيوخ، فقد كان من شرط الواقف أن يبيت الطالب فيها[١]، لذا رأينا من يولد فيها، ويموت بها، وكانت سبل الحياة مهيأة تماما؛ حتى إن إبراهيم بن الهيصم (ت٨٥٩)، وكان وزيرا في الدار المصرية، حفر بالكاملية بئرًا عظُم النفعُ بها للمصلين وغيرهم[٢].

فمن أعيان نزلائها والمقيمين بها:

عبد العزيز بن عز الدين الأصيلي (ت ٨٩٣)، قال السخاوي: «نزيل الكاملية، اشتغل قليلا، وكان كثير الانجماع طورا بذاته، له توجُّه إلى التحصيل والإمساك، جلس معي كثيرا»[٣].

و: محمد بن محمد الذهبي، قال السخاوي: «نزيل الكاملية، وانتمى لأحمد بن إمام الكاملية، وتنزل فيها وفي غيرها من الجهات، وحج مع سكون وعقل، وهو أحد الفضلاء، وربما أقرأ»[٤].

و: ناصر الدين الشيخي (ت ٨٧٤)، قال السخاوي: «نزيل الكاملية، وصهر ناظرها، وقد سمع أكثر المقروء بأخرة بالكاملية، بل لازم قبل ذلك مجلس الإملاء عند شيخنا»[٥].

---

(١) الدرر الكامنة (٥/ ٧).
(٢) الضوء اللامع (١/ ٦٨).
(٣) الضوء اللامع (٤/ ٢٣٩).
(٤) الضوء اللامع (٩/ ١٦٦).
(٥) الضوء اللامع (٨/ ٢٦٨)، الجواهر والدرر (٣/ ١١٥٣).

و: شرف الدين ابن الوزّان، قال ابن حجر: «وسكن القاهرة، وانقطع بالكاملية، وكان نظيف الثوب، حسنَ السمت، قليل الكلام، وسمع من القطب القسطلاني، ولازمه مدة»[١].

و: أحمد بن علي الأخميمي (ت ٧٥٧)، قال ابن حجر: «قال شيخنا العراقي: كان ذا صلاح ومشاركة في العلم، زرته لما قدم القاهرة بالكاملية، وبلغتنا وفاتُه بأخميم عن سن عالية» [٢].

و: جمال الدين الدلال (ت ٧١٠)، سكن الكاملية، وكان عسرا في التحديث[٣].

و: شمس الدين محمد المناوي(ت ٩٠٨)، قال الغزّي: «الشيخ الفاضل العدل، نزيل الكاملية بمصر»[٤].

وممن ولد فيها:

ابن خَبَطة (ت ٨٧١)، ولد في سنة سبع وعشرين وثمان مئة بالكاملية[٥].

وممن توفي فيها:

شيخها، وشيخ المحدثين بمصر؛ الحافظ المنذري، وقد انقطع بها نحو عشرين سنة، وسيأتي ذلك.

---

(١) الدرر الكامنة (١/ ٢٣٨).
(٢) الدرر الكامنة (١/ ٢٣٩).
(٣) الدرر الكامنة (٣/ ٣٤).
(٤) الكواكب السائرة (١/ ٧٥).
(٥) الضوء اللامع (٢/ ١٣٣).

و: أبو بكر بن يعقوب الموصلي المقرئ (ت ٦٨٢)، قال الذهبي: «توفي بدار الحديث الكاملية يوم عرفة»[١].

* الحرف والمهن الناشئة على ضفافها:

استطاعت المدرسة الكاملية، أن تكون بقعة مركزية، في القاهرة المعزية، وأكسبها الثقل العلمي، رواجا تجاريا، فنشأت صناعات وحرف في محيطها، وما ذلك إلا للفتها انتباه الناس، في تلك الحقبة.

ومن هذه المهن: الشهادة، فقد كانت الشهادة في ذلك العصر وظيفة يقوم بها أربابها، وكانوا يتخذون من الأماكن المركزية محلا لهم، كما كان الحال عند باب الساعات في الجامع الأموي بدمشق.

ومن الذين تكسّبوا بالشهادة عند الكاملية، أذكر:

شهاب الدين أحمد ابن الخازن (ت ٨٥٧)، قال السخاوي: «كان يتكسّب بالشهادة[٢] على باب الكاملية»[٣].

و: الشرف محمد ابن الخازن (ت ٨٥٣)، أخو أحمد الماضي، قال السخاوي: «وذُكر بهمة عالية وإقدام، ومعرفة بطرق التحصيل، كل ذلك مع تكسُّبه بالشهادة على باب الكاملية»[٤].

---

(١) تاريخ الإسلام (١٥/ ٤٨٨).

(٢) كان الشهود في العهد الماضي قومًا يتعرّفون أحوالَ الناس ويشهدون في القضايا، وقد نصَبوا أنفسهم لذلك فصارَ ذلك حرفتهم، وكانت لهم حوانيت كما لطائفة المحامين في هذه الأيام مكاتب. انظر: معيد النعم ومبيد النقم (ص: ٦٣).

(٣) الضوء اللامع (١/ ١٩٦).

(٤) الضوء اللامع (٦/ ٢٥٧).

و: محيي الدين القليوبي (ت ٨٦٢)، قال السخاوي: «وأقرأ الطلبة في الفقه والعربية وغيرهما، وتكسب بالشهادة، وكتب بخطه أشياء، بل أظنُّه جمع لنفسه شيئًا، ولكنه لم يكن بالمتقن، أجاز لنا، وكانت له حلقةٌ بالكاملية وبالباسطية»[(١)].

ومن الحرف التي كانت عندها:

ما ذكره السخاوي في ترجمة (ابن قَوَام)، قال: «محمد بن محمد بن محمد بن قوام، وآخَر، كنفاني على باب الكاملية كأبيه وجده؛ بحيث اشتهروا بذلك، وذُكروا بها في الآفاق، وزادت حظوة هذا على سلفه، مع محافظة على الصلوات وتلاوة للقرآن، وتكسّبه بالتجارة أيضًا في سوق الجملون، حتى تموّل، واسمه علي بن محمد، مات في ليلة الجمعة ثامن جمادى الأولى سنة -٨٩١- احدى وتسعين، في حياة أبويه، وورثاه واشتد حزن أمه عليه، وأما أبوه فلم يتأسّف عليه، بل باع في ليلته، وكادت العامة أن ترجمه»[(٢)].

* نهايتها:

بعد أن لمع في سماء الكاملية عددٌ من نجوم كبار المحدثين في الديار المصرية، على مدى ثلاثة قرون، بدأ هذا اللمعان يخبو شيئا فشيئا.

قال المقريزي: «وما برحت بيد أعيان الفقهاء، إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمان مئة، فتلاشت كما تلاشى غيرها، وولى تدريسَها صبيٌّ لا يشارك الأناسيّ إلا بالصورة، ولا يمتاز عن البهيمة إلا بالنطق،

(١) الضوء اللامع (٩/ ١١٧).
(٢) الضوء اللامع (١١/ ٢٦٨).

واستمرّ فيها دهرًا لا يدرّس بها، حتى نسيت أو كادت تنسى دروسُها، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله»[1].

قلت: ولم يكن هذا شيئا خاصا بالكاملية وحدها، لكن الخفوت كان صبغة عامة للحركة العلمية في مصر ومدارسها منذ القرن التاسع الهجري.

قال علي مبارك باشا: «ومن ابتداء القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر – يعني: مدة ثلاثة قرون – قد أُهمِل أمرُ المدارس، وامتدت أيدي الأطماع إلى أوقافها، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدم، فأخذوا في مفارقتها، وصار ذلك يزيد في كل سنة عمَّا قبلها، لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد، حتى انقطع التدريس فيها بالكلية، وبِيعَتْ كتبها وانتهبت.

ثم أخذت تتشعَّث وتتخرب من عدم الالتفات إلى عمارتها، فامتدت أيدي الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها، حتى آل بعض تلك المدارس الفخيمة، والمباني الجليلة إلى زاوية صغيرة، تراها مغلقة في أغلب الأيام، وبعضها زال بالكلية، وصار زريبةً أو حوشًا أو غير ذلك، كما بيناه في هذا الكتاب، ولله عاقبة الأمور»[2].

وقال العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري: «ومن المعلوم أن الديار المصرية ظلت موئل العلوم إلى خواتيم القرن العاشر، إذ بانقراض الدولة المصرية البرجية في أوائل ذلك القرن تضاءل النشاط العلمي بمصر، بل

(١) خطط المقريزي (٤/ ٢١٩).
(٢) الخطط التوفيقية (١/٢٢٠).

تزعزعت أركان العلم بها، وغادر هذا النشاط القطر المصري إلى أقطار أخرى، كما هو سنة الله في خلقه» [1].

(١) مقالات الكوثري (ص: ١٦٦).

المبحث الثاني

العلماء الذين تولَّوا التدريس فيها

ذكر الحافظ جلال الدين السيوطي عددًا من الذين تولوا التدريس في الكاملية فقال: «وجَعَل شيخها أبا الخطاب عمر بن دحية، ثم وليها بعده أخوه أبو عمرو عثمان بن دحية، ثم وليها الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري، ثم وليها شرف الدين بن أبي الخطاب بن دحية، ثم وليها بعده المحدث محيي الدين بن سراقة، ثم وليها تاج الدين بن القسطلاني المالكي، ثم وليها النجيب عبد اللطيف الحراني، ثم وليها القطب القسطلاني الشافعي، ثم وليها ابن دقيق العيد، ثم وليها أبو عمرو بن سيد الناس والد الحافظ فتح الدين، فانتزعها منه البدر بن جماعة، ثم وليها عماد الدين محمد بن علي بن حرمي الدمياطي ومات سنة تسع وأربعين وسبع مئة، ثم العز بن جماعة، ثم نزل عنها للجمال بن التركماني إلى أن مات سنة تسع وستين وسبع مئة، ووليها الحافظ زين الدين العراقي، ثم لما أن ولي قضاء المدينة سنة ثمان وثمانين وسبع مئة، استقر فيها الشيخ سراج الدين بن الملقن»[1].

قلت: وذكر الدكتور حسين وكّاك صاحب كتاب «دور الحديث في العالم الإسلامي»، نفرًا آخرين[2] زيادةً على من ذكرهم السيوطي، ثم تتبعت كتب التاريخ والتراجِم، فوصلتُ إلى مجموعة أخرى وَلِيَتْ التدريس في الكاملية، سوى من ذكرهم السيوطي ووكّاك، وفي هذا المبحث، أورد كل هؤلاء، مرتبين بين يديك على الوِلاء:

---

(١) حسن المحاضرة (٢/ ٢٦٢).

(٢) دور الحديث في العالم الإسلامي (ص: ٢١٠، ٢١١).

- **أبو الخطاب بن دِحْية (ت ٦٣٣)**:

عمر بن حسن، أبو الخطاب بن دِحية الأندلسي، الشيخ، العلامة، المحدث، الرحال المتفنن[١]، الحافظ، شيخ الديار المصرية في الحديث، وهو أول من باشر مشيخة دار الحديث الكاملية بها[٢].

قال ابن كثير: وقد تكلم الناس فيه بأنواع من الكلام[٣]. وقال الذهبي: «عُني بالحديث أتمَّ عناية، وليس بالقوي ضعفه جماعة، وله تصانيف ودعاوٍ مدحضة، وعبارة مقعرة مبغضة، وقد نفق على الملك الكامل، وجعله شيخ دار الحديث بالقاهرة[٤].

وقال ابن حجر: ورأيُ المغاربة في أبي الخطاب غير رأي أهل ديار مصر؛ ثم ذكر ثناء الحافظين المؤرخين أبي عبد الله الأبّار وأبي جعفر بن الزبير، عليه [٥].

وقد ذكر العلماء في سبب عزل الملك الكامل إياه من دار الحديث سببين:

الأول: قال قاضي حماة ابن واصل: كان ابن دحية – مع فرط معرفته بالحديث وحفظه الكثير له – متهما بالمجازفة في النقل، وبلغ ذلك الملكَ الكامل، فأمره أن يعلق شيئا على كتاب الشهاب، فعلق كتابا تكلم فيه على أحاديثه وأسانيده، فلما وقف الكامل على ذلك، قال له بعد أيام: قد ضاع ذاك

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٨٩).
(٢) البداية والنهاية (١٧/ ٢٢٤).
(٣) البداية والنهاية (١٧/ ٢٢٥)
(٤) العبر (٣/ ٢١٧)، باختصار.
(٥) لسان الميزان (٦/ ٨٦).

الكتاب، فعلق لي مثله، ففعل، فجاء الثاني فيه مناقضةٌ للأول، فعلم السلطان صحة ما قيل عنه، ونزلت مرتبته عنده، وعزله من دار الحديث التي أنشأها آخرا، وولاها أخاه أبا عمرو[١].

الثاني: وقيل إن سبب عزله لأنه حصل له تغير ومبادئ اختلاط[٢]؛ كما سيأتي في كلام ابن مَسْدي الآتي في ترجمة أخيه عثمان.

- **أبو عمرو عثمان بن دِحْية** (**ت ٦٣٤**):

عثمان بن حسن، السبتي اللغوي، أبو عمرو، الشيخ الحافظ، أخو أبي الخطاب بن دحية، ولي مشيخة الكاملية بعد عزل أخيه[٣].

قال ابن مَسْدي: أربى أبو عمرو علي أخيه بكثرة السماع، كما أربى عليه أخوه بالفطنة، وكرم الطباع. وكان متزهدا، لم يكن له أصول. وكان شيخه ابن الجَدّ يصلُه ويعطيه، ولما بلغه حال أخيه بمصر نهد إليه، ونزل عليه، إلى أن خَرِف أخوه، فجعله الكامل عِوَضَه بالكاملية[٤].

وقال اليونيني: «وكان أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن أسنَّ منه، وكان حافظاً للغة العرب، قيما بها، وعزل الملك الكامل أبا الخطاب عن دار

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٩٢)، ميزان الاعتدال (٣/ ١٨٧)، لسان الميزان (٦/ ٨٢).

(٢) ميزان الاعتدال (٣/ ١٨٧).

(٣) العبر (٣/ ٢٢٠)، البداية والنهاية (١٧/ ٢٣٠)، الوافي بالوفيات (١٩/ ٣١٥)، شذرات الذهب (٧/ ٢٩٣).

(٤) ميزان الاعتدال (٣/ ١٨٨)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٧)، لسان الميزان (٥/ ٣٧٧).

الحديث التي أنشأها بالقاهرة، ورتب أخاه المذكور مكانه، فلم يزل بها إلى أن توفي، وله رسائل استعمل فيها حوشي اللغة»[١].

وقال الذهبي: وكان مولَعًا بالتقعير في كلامه ورسائله، لهجًا بذلك[٢].

قلت: وفي آخر سنة ٦٣٤ زار مصر، الفقيه الحجة النبيل القدوة، أبو مروان الباجي (ت ٦٣٥)، قاضي الجماعة بإشبيلية، وأحد أعيان أهل الأندلس[٣]، إذ كان بعد حجه سنة ٦٣٤ قد اتجه إلى القاهرة في النيل من قنا إلى قوص؛ حيث بلغه أن الملك الكامل أمر بالبحث عنه وإكرامه، لما بلغه من فقهه ونبله، وكان الكامل يبحث عمن يوليه مشيخة الكاملية بالقاهرة بعد وفاة ابني دحية، لكن أبا مروان الباجي، كان عازفًا عن المناصب، ودخل القاهرة خُفية فنزل في خان الملاحين، حيث توفي عقب وصوله في ثاني يوم قدومه، ليلة الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الأول سنة ٦٣٥ هـ، فتأسف السلطان لموته، وشيع في جنازة مشهودة إلى مثواه بالقرافة[٤].

- **أبو سهل ابن طَرْبُجّة، أو: (طَرْبُيَّةَ)[٥] (ت ٦٤١):**

يونس بن يوسف بن سليمان، أبو سهل الجذامي الأندلسي، يعرف بابن طَرْبُجّة، أو طَرْبُيَّةَ، المحدث، وله مشاركة جيدة في فنون من العلم، ولي

---

(١) ذيل مرآة الزمان (٢/ ٤٢٢).

(٢) تاريخ الإسلام (١٤/ ١٤٨).

(٣) تاريخ الإسلام (١٤/ ١٨٤)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٩).

(٤) انظر قصة ذلك بالتفصيل، في: «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» (٣/ ٥٨٤- ٥٨٧).

(٥) بفتح الطاء وسكون الراء وضم الباء بواحدة، وجيم أو ياء مشددين، وتاء تأنيث. كما في «الذيل والتكملة» (٥/٤٠٢).

قضاء طرابلس المغرب، ثم انتقل إلى القاهرة في سنة سبع وعشرين وست مئة فحظي هناك، وخلف أبا الخطاب ابن دِحْية بعد وفاته، وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية مدة[١].

- زكي الدين عبد العظيم المنذري (ت ٦٥٦):

عبد العظيم بن عبد القوي، زكي الدين أبو محمد المنذري، الحافظ الكبير، صاحب التصانيف، وشيخ الحديث بمصر مدة طويلة، ولي مشيخة الكاملية مدة، وانقطع بها نحوًا من عشرين سنة، مكبًّا على العلم والإفادة، وكان ثبتًا حجة، متبحرًا في علوم الحديث، عارفًا بالفقه والنحو[٢].

وتوفي يوم السبت رابع ذي القعدة، وصلي عليه يوم الأحد بعد الظهر في موضع تدريسه بدار الحديث الكاملية، وصلي عليه أيضا تحت القلعة، ودفن بسفح المقطّم بمقبرتهم الخاصة بهم، رحمه الله تعالى[٣].

- محيي الدين بن سُراقة (ت ٦٦٢):

محمد بن محمد بن ابراهيم، محي الدين بن سُراقة، أبو بكر الشاطبي، المحدث المالكي، أقام بحلب مدّة، ثم اجتاز بدمشق قاصدًا الديار المصرية، وكان شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة[٤]، وقد وليها بعد زكي الدين عبد العظيم المنذري[٥].

---

(١) تاريخ الإسلام (١٤/ ٤٠٢).

(٢) العبر (٣/ ٢٨١) شذرات الذهب (٧/ ٤٧٩)، الأعلام (٤/ ٣٠).

(٣) البداية والنهاية (١٧/ ٣٧٩)، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام (ص: ٢٤٦)، المنذري وكتابه التكملة لوفيات النقلة (ص: ١٦٦).

(٤) العبر (٣/ ٣٠٥) تاريخ الإسلام (١٥/ ٦١)، حسن المحاضرة (١/ ٣٨١)، شذرات الذهب (٧/ ٥٣٨).

(٥) البداية والنهاية (١٧/ ٤٥٦).

وكان أحدَ الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل، وأحدَ المشايخ المعروفين بطريق القوم، وله في ذلك إشاراتٌ لطيفة، مع ما جُبل عليه من كرم الأخلاق، واطّراح التكلف، ورقةِ الطبع، ولينِ الجانب[١].

- **الرشيد العَطّار** (**ت ٦٦٢**):

يحيى بن علي بن عبد الله، رشيد الدين أبو الحسين، النابلسي ثم المصري، العطار، المالكي، الإمام الحافظ الثبْت، انتهت إليه رياسة الحديث بالديار المصرية[٢]، وولي مشيخة الكاملية ستة أعوام[٣].

- **تاج الدين بن القسطلاني** (**ت ٦٦٥**):

تاج الدين علي بن الزاهد أبي العباس أحمد بن علي، المالكي، الإمام الفقيه، المفتي المعدِّل، درّس بمصر، ثم ولي مشيخة دار الحديث الكاملية بعد الرشيد العطار[٤]، إلى أن توفي. وكان من أعلام الأئمة المشهورين بالفضيلة والدين، وحسن الأخلاق، والصلاح، ولين الجانب، ومحبة الحديث، وأهله[٥]. وهو أخو الشيخ قطب الدين، الآتي بعدُ.

(١) ذيل مرآة الزمان (٢/ ٣٠٤)، الوافي بالوفيات (١/ ١٦٧).
(٢) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٥٧)، حسن المحاضرة (١/ ٣٥٦).
(٣) العبر (٣/ ٣٠٦)، تاريخ الإسلام (١٥/ ٦٦)، تذكرة الحفاظ (٤/ ١٥٧)، شذرات الذهب (٧/ ٥٤٠).
(٤) تاريخ الإسلام (١٥/ ١١٧)، الوافي بالوفيات (٢٠/ ١٢١).
(٥) ذيل مرآة الزمان (٢/ ٣٧٢)، العبر (٣/ ٣١٣)، شذرات الذهب (٧/ ٥٥٦).

- **شرف الدين بن أبي الخطاب بن دحية (ت ٦٦٧):**

محمد ابن الحافظ أبي الخطاب عمر بن دحية، شرف الدين أبو الطاهر. سمع أباه وجماعة، وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية مُديدة[١]، وكان يحفظ جملة من كلام والده ويورده إيرادًا جيدًا، وحدّث، وكان فاضلا[٢].

- **النجيب عبد اللطيف الحراني (ت ٦٧٢):**

عبد اللطيف بن عبد المنعم بن علي، نجيب الدين أبو الفرج، ابن الإمام الواعظ أبي محمد بن الصَّيْقل، الحراني، الحنبلي، التاجر، السفار، الشيخ الجليل، مسند الديار المصرية، روى الكثير ببغداد ودمشق ومصر؛ وانتهى إليه علوُّ الإسناد، ورُحل إليه من البلاد، وازدحم عليه الطلبة والنقاد، وألحق الأحفاد بالأجداد؛ وكان يجهز البز ويتكسب بالمتاجر. وله وجاهة وحرمة وافرة عند الدولة، ثم انقطع إلى رواية الحديث، وولي مشيخة دار الحديث الكاملية إلى أن مات، وأقام بها مدة[٣].

---

(١) تاريخ الإسلام (١٥/ ١٤٧)، الوافي بالوفيات (٣/ ٣٥).

(٢) ذيل مرآة الزمان (٢/ ٤٢١)، البداية والنهاية (١٧/ ٤٨٤)، الوافي بالوفيات (٢٦١/٢)، حسن المحاضرة (١/ ٣٨١).

(٣) الوافي بالوفيات (١٩/ ٧٨)، العبر (٣/ ٣٢٤)، المنهل الصافي (٧/ ٣٥٧)، حسن المحاضرة (١/ ٣٨٢)، شذرات الذهب (٧/ ٥٨٦).

- **شرف الدين الميدومي (ت ٦٨٣)**:

محمد بن إبراهيم، أبو عبد الله، شرف الدين الميدومي، الإمام المحدث المتقن، كان خصيصًا بالحافظ المنذري، ولي خِزَانة كتب الكاملية، ثم طُلب لمشيختها فامتنع، ثم وليها إلى أن مات[١].

- **القطب القسطلاني (ت ٦٨٦)**:

محمد بن أحمد بن علي، قطب الدين، أبو بكر، المصري ثم المكي، الشافعي، ابن الشيخ الزاهد أبي العباس، وأخو الإمام تاج الدين علي ابن القسطلاني- السابق ذكره -.

الفقيه المحدث، الإمام العلامة، مجموع الفضائل، كان أحد من جمع العلم والعمل، والهيبة والورع، أقام بمكة مدة طويلة، وطُلب منها؛ فولي مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة، إلى أن توفي في شهر المحرّم[٢]، وكان بيده الوظائف الدينية[٣].

- **ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢)**:

محمد بن علي بن وهب، أبو الفتح القشيري، تقي الدين ابن الإمام مجد الدين بن دقيق العيد، شيخ الإسلام، المجتهد المطلق، قال التاج السبكي: «ولم ندرك أحدا من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد، هو العالم

(١) تاريخ الإسلام (١٥/ ٥٠٤)، الوافي بالوفيات (٢/ ١٠)، بغية الوعاة (١/ ١٢).
(٢) العبر (٣/ ٣٦٣) تاريخ الإسلام (١٥/ ٥٧٨) البداية والنهاية (١٧/ ٦٠٩)، الوافي بالوفيات (٢/ ٩٤)، طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٤٤)، شذرات الذهب (٧/ ٦٩٤).
(٣) ذيل مرآة الزمان (٤/ ٣٣٠).

المبعوث على رأس السبع مئة، المشارُ إليه في الحديث المصطفوي النبوي، صلى الله على قائله وسلم، وأنه أستاذ زمانه علما ودينا»[١].

قال ابن كثير: «وانتهت إليه رياسة العلم في زمانه، وفاق أقرانه، ورحل إليه الطلبة، ودرس في أماكن كثيرة، ثم ولي قضاء الديار المصرية في سنة خمس وتسعين وست مئة، ومشيخة دار الحديث الكاملية»[٢].

- **أبو عمرو بن سيد الناس** (**ت ٧٠٥**):

محمد بن محمد بن أحمد، أبو عمرو ابن سيد الناس اليعمري، والد الحافظ فتح الدين. قال ابن حجر: « كان يدري اللغة والعربية، وله نظم، وفضائل، وولي مشيخة الكاملية، بعد ابن دقيق العيد، ثم انتزعها منه بدر الدين ابن جماعة»[٣].

قلت: وقد سبق أن الحافظ أبا عمرو تولى ولده الحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس (ت ٧٣٣) وظيفة الإعادة زمن مشيخة ابن دقيق العيد للكاملية.

- **البدر بن جماعة** (**ت ٧٣٣**):

محمد بن إبراهيم، بدر الدين بن جماعة، الكناني الحموي، شيخ الإسلام، وقاضي القضاة بالديار المصرية، ألّف في فنون كثيرة، وحدّث ودرّس بالكاملية وغيرها[٤].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٢٠٩).

(٢)البداية والنهاية (١٨/ ٢٩)، وانظر: طبقات الشافعية الكبرى (١٠/ ١٤٥)، شذرات الذهب (٨/ ١٢)

(٣) الدرر الكامنة (٥/ ٤٢٥).

(٤) حسن المحاضرة (١/ ٤٢٥)، البداية والنهاية (١٨/ ١١١).

قال ابن حجر: «ومن ورعه: أنه لما ولي تدريس الكاملية، رأى في كتاب الوقف في شرط الطلبة، المبيت، فجمع ما كان أخذه وهو طالب وأعاده للوقف؛ لأنه كان لا يبيت، ولما عُزل واستقر جلال الدين القزويني مكانه، ركب من منزله من مصر وجاء إلى الصالحية، حتى سلّم عليه فعُد ذلك من تواضعه... وانقطع في منزله قريبًا من ست سنين إلى أن مات وقد جاوز التسعين بأربع سنين وأشهر»[(١)].

- **شمس الدين ابن القَمّاح (ت ٧٤١)**:

محمد بن أحمد بن إبرهيم، شمس الدين أبو عبد الله، ابن القمّاح، الشافعي، الإمام القاضي، كان عالمًا فقيهًا فاضلًا محدثًا، سريع الحفظ[(٢)].

قال الصلاح الصفدي: «وناب عن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة، في تدريس الكاملية مدة غَيْبته في الحجاز، وجمع مجاميع مفيدة، وعلى ذهنه وفيات وتواريخ وحكايات ونوادر»[(٣)].

- **جلال الدين القَزْويني (ت ٧٣٩)**:

محمد بن عبد الرحمن بن عمر، قاضي القضاة، العلامة، ذو الفنون، كان من كَمَلة الزمان، وأفراد العصر، له مكارم وسؤدد، وهو الذي اختصر

(١) الدرر الكامنة (٥/ ٧).
(٢) حسن المحاضرة (١/ ٤٢٦)، الدرر الكامنة (٥/ ٣٠)، شذرات الذهب (٨/ ٢٣٠).
(٣) الوافي بالوفيات (٢/ ١٠٦).

«المفتاح» للسكاكي، في «تلخيص المفتاح»، وشرحه وسماه: «الإيضاح»[١].

قال ابن كثير: «وفي يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة – سنة ٧٢٧ – جاء البريد بطلب القاضي القَزْويني الشافعي إلى مصر، فدخلها في مستهلّ رجب، فخلع عليه بقضاء قضاة مصر، مع تدريس الناصرية، والصالحية، ودار الحديث الكاملية، عِوَضًا عن بدر الدين بن جماعة؛ لأجل كبر سنه، وضعف نفسه، وضرر عينيه»[٢].

- **عز الدين بن جماعة (ت ٧٦٧)**:

عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم، عز الدين بن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، الدمشقي الشافعي، شيخ المحدثين[٣]، وقاضي القضاة بالديار المصرية، بعد الجلال القزويني، وولي التدريس في عدد من الأماكن؛ منها: دار الحديث الكاملية[٤].

قال السخاوي: «وذكر الزين رضوان أنه سمع على العز بن جماعة مجالس من البخاري بالكاملية وغيرها من القاهرة»[٥].

وقد نزل العز بن جماعة عن تدريس الكاملية مرتين؛ مرة لعماد الدين الدمياطي، ومرة للجمال بن التركماني، كما سيأتي.

---

(١) الوافي بالوفيات (٣/ ١٩٩)، طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ١٥٨).
(٢) البداية والنهاية (١٨/ ٢٧٨).
(٣) نعته بذلك تلميذه التاج السبكي، كما في طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢٤٦).
(٤) المنهل الصافي (٧/ ٣٠١)
(٥) الضوء اللامع (١٠/ ١٨٧).

ابن المهندس (ت ٧٤٧):

أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن المهندس. شيخ دار الحديث بالكاملية[١].

أبو المحاسن بن سيف الدين الحنبلي (ت ٧٥١):

يوسف بن يحيى، شمس الدين أبو المحاسن بن سيف الدين، الحنبلي الدمشقي، ولي تدريس الصالحية ونظرها، ودرّس بغيرها، وولي مشيخة الكاملية، سمع منه ابن رافع وأثنى عليه[٢].

قلت: الذي يظهر لي أنهما – أي أبو المحاسن وابن المهندس – تولياها في فترة انتقالية، ما بين العزل والتولية، التي كانت بين ابن جماعة والقزويني.

- عماد الدين الدِّمياطي (ت ٧٤٩):

محمد بن علي بن حَرَمي، عماد الدين الدمياطي، الشيخ الفرضي، الإمام المحدث الرحّال، مَهر في الفرائض وتفنن في علوم، مع المروءة وكرم النفس، وكان خصيصًا بالقاضي عز الدين ابن جماعة، مع التودد وحسن المحاضرة واللطف، وولي مشيخة الكاملية[٣].

قال ابن كثير: «وفي سابع عشرين من جمادى الأولى – سنة ٧٣٨ – عُزل القاضي جلال الدين القزويني عن قضاء مصر... فلما كان يوم

(١) حسن المحاضرة (١/ ٣٩٥)

(٢) الدرر الكامنة (٦/ ٢٥٤).

(٣) معجم الشيوخ الكبير للذهبي (٢/ ٢٣٦)، الوافي بالوفيات (٤/ ١٦١)، الدرر الكامنة (٥/ ٣١٣).

الاثنين تاسع عشر جمادى الآخرة بعد سفر جلال الدين بخمسة أيام، طلب السلطان أعيان الفقهاء إلى بين يديه، فسألهم عمن يصلح للقضاء بمصر، فوقع الاختيار على القاضي عز الدين بن جماعة، فولّاه في الساعة الراهنة... ونزل عز الدين بن جماعة عن دار الحديث الكاملية لصاحبه الشيخ عماد الدين الدمياطي، فدرّس فيها، وأورد حديث: «إنما الأعمال بالنيات» بسنده، وتكلم عليه»[١].

- **الجمال بن التركماني** (**ت ٧٦٩**):

عبد الله بن علي بن عثمان، جمال الدين بن التركماني، الحنفي. قال ابن حجر: «اشتغل ودرّس وأفتى، وحدث ودرس بالكاملية؛ نزل له عنها القاضي عز الدين ابن جماعة... ولم يخلف بعده مثله خصوصًا من الحنفية»[٢].

- **علي بن أيوب الأصبهاني** (**ت ٧٧٦**):

علي بن أيوب الأصبهاني، نزيل القاهرة. قال ابن حجر: «حدّث بالكاملية عن أبي الحسن الواني، وهو أحد من سمع عليه قاضي القضاة جلال الدين البلقيني مع قلة مشايخه»[٣].

(١) البداية والنهاية (١٨/ ٤٠٠).
(٢) الدرر الكامنة (٣/ ٥٤).
(٣) إنباء الغمر (١/ ٨٧).

- **زين الدين العراقي (ت ٨٠٦)**:

عبد الرحيم بن الحسين، أبو الفضل زين الدين العراقي، حافظ الديار المصرية، ومحدثها، وشيخها، قال تلميذه وخرّيجه الحافظ ابن حجر: «ولم نر في هذا الفن أتقن منه، وعليه تخرّج غالب أهل عصره»[١].

ولي التدريس للمحدثين بأماكن منها دار الحديث الكاملية[٢]. قال السخاوي: «وولي قضاء المدينة النبوية وخطابتها وإمامتها في ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين... واستقر عِوَضَ صاحب الترجمة في تدريس الحديث بالكاملية: السراج بن الملقن؛ مع كونه كان قد استناب ولده فيه، ولكن قدم المذكور لشيخوخته، ونازعه الولي في ذلك وأطال التكلم، إلى أن كفّه البُلقيني والأبناسي، بتوسل السراج بهما في ذلك»[٣].

- **ولي الدين العراقي (ت ٨٢٦)**:

أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين، ولي الدين أبو زرعة العراقي، الحافظ الإمام، قاضي القضاة، شيخ الإسلام[٤]، ولّي مشيخة الكاملية نيابة عن أبيه الحافظ العراقي، لكن انتزعها منه السراج ابن الملقن.

قال السخاوي: «قام بسد وظائف أبيه حين توجه على قضاء المدينة وخطابتها، ولكن وثب عليه شيخه السراج بن الملقن، فانتزع دار الحديث الكاملية خاصة منه، وتحرك لمعارضته، وتحدث في تمييز كفاءته، فحمل

(١) إنباء الغمر (٢/ ٢٧٦).
(٢) المنهل الصافي (٧/ ٢٤٨)، إنباء الغمر (١/ ٣١٦).
(٣) الضوء اللامع (٤/ ١٧٤).
(٤) ذيل الدرر الكامنة (ص ٢٩٦)، إنباء الغمر (٣/ ٣١١).

عليه كلٌّ من شيخه الأبناسي والبُلقيني، فسكت، وطار بكل ذلك ذكره، وسار فيه فخره، ثم أضيفت إليه جهات أبيه بعد موته، فزادت رياسته، وانتشرت في العلوم وجاهته»[(١)].

- **سراج الدين بن الملقن (ت ٨٠٤)**:

عمر بن علي بن أحمد، سراج الدين أبو حفص، الشافعي، ابن النحْوي[(٢)]، المعروف بـ(ابن الملقن)، الإمام الحافظ الفقيه، تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بعد انتزاعها من أبي زرعة العراقي.

قال ابن حجر: «وفيها – أي سنة ٧٨٨ – عُزل شهاب الدين أحمد بن ظهيرة عن قضاء مكة، ونقل إلى قضائها محب الدين بن أبي الفضل النويري، وقرر في قضاء المدينة عوضا عنه الشيخ زين الدين العراقي، واستقر الشيخ سراج الدين بن الملقن مدرساً بالكاملية عوضا عن العراقي»[(٣)].

وقال السخاوي: «وكان استقر فيها – أي في دار الحديث الكاملية – بعد سفر الزين العراقي لقضاء المدينة النبوية، مع كونه كان رغب عنها

---

(١) الضوء اللامع (١/ ٣٣٨)

(٢) أما لقبه «ابن النحْوي»: فلكون أبيه كان عالمًا بالنحو، وأما شهرته: «ابن الملقن» فلأن أباه –قبل وفاته– أوصى به إلى صديقه الشيخ عيسى المغربي، وكان يلقِّن القرآن بجامع ابن طولون فتزوّج بأم المصنف، فصار ينسب إليه، وبه عرف. قال السخاوي: «وكان– فيما بلغني– يغضب منها بحيث لم يكتبها بخطه، إنما كان يكتب غالبًا: ابن النحْوي، وبها اشتهر في بلاد اليمن». الضوء اللامع (٦/١٠٠)، وينظر: ذيل الدرر الكامنة (ص:١٢١).

(٣) إنباء الغمر (١/ ٣١٦).

لولده الولي، وكذا نازعه الولي، وقال: يخرّج حديثا وأخرجه؛ ليظهر المستحق منا، فتوسل السراج بالبلقيني والأبناسي، حتى كفَّ؛ مع كون الولي من طلبته، وندم الولي بعد دهر على المنازعة»[١].

قلت: الظاهر – والله أعلم – أن ندم الولي العراقي، راجع إلى كون ابن الملقن من شيوخه، فما كان ينبغي له منازعته وهو تلميذه.

نور الدين ابن الملقن (ت ٨٠٧):

علي بن عمر بن علي، نور الدين أبو الحسن ابن الحافظ سراج الدين بن الملقن، تفقه قليلا، وناب في الحكم، وكان عنده حياء وسكون، ودرّس في جهات أبيه بعد موته[٢]؛ والتي منها دار الحديث الكاملية.

جلال الدين ابن الملقن (ت ٨٧٠):

عبد الرحمن بن علي بن عمر، جلال الدين أبو هريرة ابن الملقن، قاضي القضاة، ولي تدريس الحديث بالكاملية، وغير ذلك من تداريس أبيه وجده، مع الجلالة، وحسن الهيئة، وحسن السيرة، والسكينة والوقار، والانجماع عن الناس، وكان يداوم في درس الحديث على الحفظ من شرح العمدة لجده[٣].

ابن حجر العسقلاني (٨٥٢):

أحمد بن علي، شهاب الدين أبو الفضل، ابن حجر العسقلاني، الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، قاضي القضاة، وأمير المؤمنين في الحديث.

---

(١) الضوء اللامع (٦/ ١٠٤).
(٢) ذيل الدرر الكامنة (ص: ١٦٠)، الضوء اللامع (٤/ ٢٦٧).
(٣) الضوء اللامع (٤/ ١٠١)، نظم العقيان (ص: ١٢٤).

وقد أملى الحافظ بدار الحديث الكاملية مئة وأربعة عشر مجلسا، ابتداؤها يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وثمان مئة، وانتهاؤها يوم الثلاثاء ثاني ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وثمان مئة[١]، وسيأتي وصفها في المبحث التالي.

- **السيد النسَّابة (ت ٨٦٦)**:

حسن بن محمد بن أيوب، الحسني، الشافعي، المعروف بالسّيّد النّسابة، كان إماما، عالما، أخباريا[٢]، ولم يتولَّ مشيخة الكاملية، بل حدّث بها، وحضر عليه جماعة[٣]، منهم السخاوي[٤]، وأقرأ عددًا من الكتب؛ كالبخاري، ومسلم[٥]، والنسائي[٦].

الكمال محمد «ابن إمام الكاملية» (ت ٨٧٤):

محمد بن محمد بن عبد الرحمن، الكمال أبو محمد المعروف بـ(بابن إمام الكاملية)؛ إذ كان إمامَ الكاملية هو أبوه وجده وجد أبيه، وهو والد محمد وأحمد وعبد الرحمن- المذكورين بعدُ - كان إماما علامة، حسن التصور، جيد الإدراك، ذا أحوال صالحة، ودرّس للمحدثين بالقطبية التي برأس حارة زويلة،

(١) الجواهر والدرر (٢/ ٥٨٦).
(٢) الضوء اللامع (٣/ ١٢١)، نظم العقيان (ص: ١٠٥)، شذرات الذهب (٩/ ٤٥١).
(٣) الضوء اللامع (٩/ ٤٧)، (٩/ ١٩٠).
(٤) الضوء اللامع (١٠/ ٣٣٢).
(٥) الضوء اللامع (٨/ ١٧١).
(٦) الضوء اللامع (٥/ ٣٠٢).

وبعد موت الجلال بن الملقن بالكاملية، وولي مشيخة الصلاحية بجوار الإمام الشافعي[١].

قلت: ولعله الوحيد الذي جمع بين الإمامة والتدريس فيها؛ إذ لم أقِفْ فيما طالعتُه من كتب التاريخ والتراجم، على من حاز هاتين المنقبتين سواه.

- **شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢)**:

محمد بن عبد الرحمن، شمس الدين السخاوي، الشيخ الإمام، المسند المؤرخ، الحافظ المتقن[٢]، ولي مشيخة الكاملية، بعد الكمال، لكن أولاد الكمال نازعوه حتى أخذوها منه بمساعدة جوهر المعيني؛ أحد أمراء المماليك، حتى آلت لابن النقيب، وقد تألم السخاوي من هذا الصنيع، وحكى حاصل هذه الحادثة ونثرها شذراتٍ في مواضع متفرقة من تاريخه، وألّف في ذلك كتابا مفردا سماه: «الفرجة بكائنة الكاملية التي ليس فيها للمعارض حجة»[٣].

قال في ترجمته عن نفسه: «واستقر في تدريس الحديث بدار الحديث الكاملية، عقب موت الكمال، ولكن تعصب مع أولاده من يحسب أنه يحسن صُنعًا، وكانت كوائن أشير إليها في «الفرجة»، ثم رغب الابن عنها لعبد القادر بن النقيب»[٤].

---

(١) الضوء اللامع (٩/ ٩٤، ٩٥)، نظم العقيان (ص: ١٦٣).

(٢) الكواكب السائرة (١/ ٥٣)، وترجم لنفسه في تاريخه «الضوء اللامع» (٨/ ٢-٣٢).

(٣) الضوء اللامع (٨/ ١٧).

(٤) الضوء اللامع (٨/ ٣١).

وقال في ترجمة «جوهر المعيني»: «وذُكر بديانة ومحبة في العلماء؛ ولزم من ذلك مساعدتُه لبني شيخه الكمال، في أخذ وظيفتي – مشيخة الحديث بدار الحديث الكاملية – التي صارت إليّ بعد أبيهم بطريق شرعي، متوهما أن ذلك فرية، سيّما ولم يعدِم مخاصما ممن يتشبه بالفقهاء ونحوهم، يحثهم على ذلك، ومع ذلك فلم ينجرَّ السلطان معهم، ومللت فسكنت، فبذل هذا حينئذ مالا، حتى اتصل كتاب الوقف بشاهدي زور، لكون فيه أن للناظر العزلَ بجنحة وغيرها، مما – مع ارتكابهم فيه لما أشرت إليه – لا يقتضي إخراجَ المتأهّل وتقرير غيره، وآل الأمر إلى أن صارت لعبد القادر بن النقيب، بنزول مما ساعده المشار إليه، بقدر يسير كان يمكن هذا لو كان توجهه صحيحا دفعه وإبقاء الوظيفة مع من هو منفردٌ باستحقاقها، ولكن شأن هذا غالبا عدم الاهتداء للإصلاح، بحيث لم يصلح بين ولدي شيخه ولا بين ولدي النور الفاكهي ونحو ذلك، وربما يتعلق بأمر يتوهمه تدينا، وما أحسنَ قولَ القائل: من عبد الله بجهل كان ما يفسد أكثرَ مما يصلح»[1].

قلت: وقد كان من أثر هذه الحادثة على نفس الحافظ الشمس السخاوي، أنه كان يتمدّح كل من واساه فيها، ويعيب على كل من سكت أو مال إلى ابني الكمال محمد؛ كما فعل في ترجمة ابن النقيب، الذي آلت إليه مشيختها، أو مع الشمس الجوجري والكمال بن أبي شريف؛ اللَّذين نابا في التدريس بها، والثلاثة سيأتون بعدُ.

(١) الضوء اللامع (٨/ ٨٤– ٨٥).

وأما مدحه لمن واساه فمنه:

– قوله في ترجمة الشمس ابن قمر، (ت ٨٧٦): «ورأيت منه مزيد التألم بكائنة الكاملية، وصار مع ذلك يخفض عني أمرها، ويقول: لم أزل أسمع شيخنا يقول: لا أعلم الآن وظيفة في الحديث مع مستحقها، ويردف ذلك بقوله: العلم يبطئ ولا يخطئ، ولا بد لك من كذا وكذا، وأحب ألا تهملني»[١].

– وقوله في ترجمة محمد سيف الدين الحنفي (ت ٨٨١): «وبالجملة فهو إمام علامة في الفقه وأصوله، والعربية والتفسير وأصول الدين وغيرها، بديع التحقيق، بعيد النظر والمطالعة، متأنٍّ في تقريره، مع سلوكه طريق السلف، ومداومته على العبادة والتهجد والجماعة، وشهود مشهد الليث، والانجماع عن الناس، والانقباض عن بني الدنيا، وعدم التردد إليهم جملة، والسكون، وترك الخوض فيما لا يعنيه، وذكري بالجميل غيبة وحضورا، وإكرامي الزائد؛ حتى إنه تألم بسبب كائنة الكاملية، وكان ممن كلم السلطان في الثناء عليّ، ولم يكن يميل إلا لأهل التقوى والأدب»[٢].

- **الزين عبد الرحمن ابن الكمال محمد**:

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن، الزين ابن الكمال إمام الكاملية. قال السخاوي: «وهو بالنسبة لأخويه فهو أفهمهم، ولما انتزع له (جوهر المعيني) مشيخة دار الحديث الكاملية من مستحقها شرعا[٣]، رتب

(١)الضوء اللامع (٨/ ١٧٧).
(٢) الضوء اللامع (٩/ ١٧٥).
(٣) يقصد السخاوي بذلك: نفسه.

هذا في إلقاء صورة درس، وحضر معه العبادي والبقاعي وغيرهما، ثم صار يستنيب، إلى أن أعرض عنها بدراهم لابن النقيب»[1].

- **أحمد بن الكمال محمد**:

أحمد بن الكمال محمد بن محمد بن عبد الرحمن، شقيق محمد وعبد الرحمن. قال السخاوي: «ولما مات أبوه تمشيخ بدون مقتضيها؛ لكن لكون الفساق وثبوا له ولأخيه عليّ حتى اغتصبوا مني مشيخة الحديث بالكاملية... وتباين مع أخيه عبد الرحمن لأسباب دنيوية، وآل الأمر إلى النزول عن التدريس المشار إليه لابن النقيب، وتعجب أهل الديانة من هذا الصنيع أولا وثانيا»[2].

قلت: ولم أقف لهما على تاريخ وفاة، ولعلهما توفيا أوائل القرن العاشر.

وأما أخوهما **محمد ابن الكمال محمد**: فقد توفي سنة (٨٧٦)، ولم يدرّس فيها، بل كان ينوب في إمامتها، قال السخاوي: «ولما مات والده لم يشاحح أحدًا من أخويه في الميراث، مع مزيد تعديهما وافتياتهما عليه، واختلاسهما منه، وهو غير منفك عن مساعدتهما، لغلبة سلامة باطنه، بحيث كان إلى البهاليل أقرب، وكان لتحريه عنهما في الجملة، ينوب عن أبيه في إمامة الكاملية غالبا. مات بعد أبيه بدون سنتين... وكنت ممن شهد الصلاة عليه، مع كونه أكثر أخويه توليبا علي، ولكنه أخير وأبرك، رحمه الله وغفر لنا وله»[3].

---

(١) الضوء اللامع (٤/ ١٤٤).
(٢) الضوء اللامع (٢/ ١٨١)
(٣) الضوء اللامع (٩/ ٢٢٥).

- **الشمس الجوجري (ت ٨٨٩)**:

محمد بن عبد المنعم، الشمس بن نبيه الدين الجوجري. قال السخاوي: «كما أنه لم يمتنع من النيابة في تدريس الحديث بالكاملية، عن من علم غصبه له من مستحقه، وبالجملة فمحاسنه جمة والكمال لله»[١].

- **الكمال ابن أبي شريف (ت ٩٠٦)**:

محمد بن محمد بن أبي بكر، الكمال ابن أبي شريف، الإمام شيخ الإسلام[٢]. قال السخاوي: «وكذا ناب في تدريس الحديث بالكاملية، عن من اغتصبها، وكنت أنزّهه عن هذا، ودرّس وأفتى، وحدث، ونظم ونثر، وصنف»[٣].

- **ابن النقيب (ت ٩٢٢)**:

عبد القادر بن علي، محيي الدين ابن النقيب، الشيخ الإمام العلامة قاضي القضاة[٤]. قال السخاوي: «واستقر في دار الحديث الكاملية برغبة ابن الكمال، مع كونها وظيفتي!» [٥].

قلت: وهو آخر من وقفت عليه من شيوخها.

---

(١) الضوء اللامع (٨/ ١٢٦).
(٢) شذرات الذهب (١٠/ ٤٣)، الأعلام (٧/ ٥٣).
(٣) الضوء اللامع (٩/ ٦٦).
(٤) الكواكب السائرة (١/ ٢٥٤)، شذرات الذهب (١٠/ ١٥٦).
(٥) الضوء اللامع (٤/ ٢٨١).

المبحث الثالث

لمحات في بيان أوجه خدمتها للسنة النبوية.

تبين مما تقدم أن الكاملية وليها ودرّس فيها، رموزُ الحديث في الديار المصرية في عصرهم، بل ثَمة جماعة درّسوا فيها انتهى إليهم علم الحديث كلٌّ في وقته؛ أمثال: المنذري، والرشيد العطار، والقطب القسطلاني، وابن دقيق العيد، والبدر ابن جماعة، والزين العراقي، وولده الولي العراقي، وابن حجر، والسخاوي: مما يَدلُّنا على عظم ما أسْدتْه هذه المدرسةُ على مدى نحو ثلاثة قرون من الزمان، إلى السنة المشرفة؛ رواية ودراية، تأليفا للكتب الكبار، والأجزاء الصغار، وعقدًا لمجالس التحديث والإقراء، ومجالس الإملاء، وتخريجا للطلاب الذين صاروا فيما بعد أعلاما كبارًا، ذبُّوا عن الدين، وعن سنة سيد المرسلين، عليه الصلاة والسلام.

ومما هو معلوم أن القرنين السابع والثامن الهجريين، من العصور الذهبية للسنة المشرفة، فكانت الكاملية زاهيةً مشرقةً في هذه المدة، مستمدةً هذا البريق والألَق، من كوكبة العلماء الذين حباهم الله تعالى واصطفاهم، لخدمة دينه، وحفظ سنة حبيبه ﷺ.

فتنوعت هذه الخدمةُ التي قامت بها الكاملية وشيوخها الأبرار، للسنة النبوية على عدة أنحاء، وفي هذا المبحث اللطيف، أذكر لمحات من هذا الدور المنيف، الذي قامت به الدار الكاملية في خدمة الحديث الشريف، فأقول:

أولا: مجالس الإقراء والسماع:

كانت مجالس السماع والإقراء لكتب السنة سمةً أساسية لمجالس العلم في عصورها الزاهية، وكان للكاملية من ذلك أوفى نصيب، وأجل مقدار، ففضلا عمن تقدم ذكرهم من شيوخها الكبار، وفحولها الأبرار، أسوق هنا طرفا، ممن وقفت عليهم في بطون كتب التراجم من العلماء والطلاب الذين حضروا كتبا، أو أحاديث بعينها، في الكاملية.

* أما الكتب، فممن نُقل إلينا حضورُهم وسماعُهم:

– جمال الدين رافع بن هجرس – والد الحافظ تقي الدين محمد بن رافع – : قال الطهطاوي: «لازم ابن دقيق العيد وقرأ عليه الأربعين التساعية، التي خرجها لنفسه، في ثاني عيد الأضحى من سنة ٦٩٨، بدار الحديث الكاملية بالقاهرة»[١].

– تاج الدين السبكي: حضر على شيخه إسماعيل ابن الإمام، كتاب (الجمعة) للنسائي، بقراءة الشيخ شهاب الدين العسجدي، في ثاني جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وسبع مئة، بالمدرسة الكاملية من القاهرة[٢].

– الشرف الخطيب: سمع على العز بن جماعة مجالس من البخاري بالكاملية وغيرها من القاهرة[٣].

– الشهاب أحمد بن موسى المتبولي: سمع الحديث على غير واحد، وهو ممن سمع البخاري بكماله في الكاملية، وأجاز له غير واحد[٤].

---

(١) تعليقات أحمد رافع الطهطاوي، على ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني (ص: ٣٥).
(٢) معجم الشيوخ للسبكي (ص: ١٥٩).
(٣) الضوء اللامع (١٠/ ١٨٧).
(٤) الضوء اللامع (٢/ ٢٢٨).

– الزين عبد الرزاق بن أحمد البقلي: سمع البخاري في الكاملية بقراءة الديمي، إلا ما فاته على المسمعين، فأكمله على الشاوي خاصة[١].

– علي بن أحمد بن دحية، ويعرف بالصبوة: سمع في مسلم بالكاملية[٢].

– الشريف السمهودي: ختم البخاري مع ثلاثياته، بقراءة الدِّيَمي على من اجتمع من الشيوخ بالكاملية[٣].

– نور الدين السنهوري، شيخ المالكية: حضر على الشيوخ الذين قرأ عليهم الديمي في الكاملية البخاري[٤].

– أبو الحسن ابن التِّنِّسي: سمع الحديث على ابن حجر والزين الزركشي، وفي البخاري بالظاهرية على الجماعة، وكذا بالكاملية فيما ذكر[٥].

– علي بن محمد بن عبد الرحمن المنوفي، نزيل مكة: سمع على الشيوخ الذين قرأ عليهم الديمي بالكاملية البخاري إلا اليسير منه[٦].

– محمد بن محمد بن يوسف، ابن المقرئ الطرابلسي: سمع ختم البخاري بالكاملية على مشايخ بقراءة الديمي[٧].

---

(١) الضوء اللامع (٤/ ١٩٢).
(٢) الضوء اللامع (٥/ ١٦٧).
(٣) الضوء اللامع (٥/ ٢٤٦).
(٤) الضوء اللامع (٥/ ٢٥٠).
(٥) الضوء اللامع (٥/ ٢٨٦).
(٦) الضوء اللامع (٥/ ٣١٢).
(٧) الضوء اللامع (١٠/ ٣٠).

– يعقوب شاه المهمندار: سمع ختم البخاري بالكاملية بقراءة الديمي على عدة شيوخ[١].

– ابن الجندي: سمع على السيد النسابة بعض النسائي بالكاملية وغير ذلك[٢].

– أبو اليمن بن العلاء المقدسي: قال السخاوي: «سمع بقراءتي في الكاملية ختم مسلم على النسابة والبارنباري وغيرهما»[٣].

– المكين بن حسام المهدويّ: قال ابن الفوطي: «سمع بدار الحديث الكامليّة بمصر، على الشيخ الأفضل عبد الله بن لُبّ، جميع كتاب المصابيح، للامام الحافظ أبي محمّد الحسين بن مسعود الفرّاء البغوي، بقراءة محمّد بن عبد الحكم السعديّ الشافعيّ، في شوّال سنة اثنتين وخمسين وستّ مئة»[٤].

قلت: وهذا النص يفيد أن الذين تولوا مشيخة الكاملية، كانوا يستقدمون إليها المحدثين، ليعقدوا مجالس بها، فإن الوقت الذي حدّث فيه الإمام عبد الله بن لُبّ (ت٦٥٧)، بكتاب «المصابيح» للبغوي، كان في عهد مشيخة الحافظ المنذري لها.

– **ومما قرئ فيها أيضا:** كتاب «معرفة علوم الحديث»، للحاكم، فقد ذكر العلامة الشيخ طاهر الجزائري أنه حصل على نسخة منه «كتبت في القاهرة في دار الحديث الكاملية سنة ٦٣٤ وقرئت في قلعة الجبل على

(١) الضوء اللامع (١٠/ ٢٨١).
(٢) الضوء اللامع (٥/ ٣٠٢).
(٣) الضوء اللامع (٨/ ١٧١).
(٤) مجمع الآداب في معجم الألقاب (٦/ ٤٧٧).

بعض أهل الأثر، وأنها منقولة من نسخة الحافظ المنذري المثبت عليها صورة سماعه في آخر كل جزء من أجزائها الخمسة، من الشيخ الإمام أبي نزار ربيعة بن الحسن اليمني الحضرمي سنة ٦٠٢»[١].

ومما قرئ أيضا: كتاب «التوضيح لشرح الجامع الصحيح»، لشيخها ابن الملقن، فقد وُجد على النسخة الخطية للكتاب التي كتبها تلميذه سبط ابن العجمي (ت ٨٤١) سماعاتٌ تفيد ذلك، منها قول ابن العجمي في آخر الجزء الأول: «فرغ من تعليقه بدار السنة الكاملية بالقاهرة، في مدة آخرها منتصف شعبان الكريم، من سنة خمس وثمانين وسبعمائة: إبراهيم بن محمد بن خليل ابن العجمي الحلبي...وعلى يمين هذِه الكتابة بخط مغاير يبدو أنه خط ابن الملقن: ثم بلغ في الثاني بعد المئة قراءة عليّ ومقابلة بأصلي نفعه الله به وإياي .كتبه مؤلفه غفر الله له.

وهذا الجزء كما هو واضح قرأه سبط على شيخه ابن الملقن في مجالس عددها مئة واثنان مجلسًا وفي نهاية كل مجلس يحدد موضع البلاغ ويكتب ذلك ابن الملقن بنفسه»[٢].

ومما قرئ فيها: كتاب «معجم الشيوخ»، للصيداوي، قال ابن طولون الدمشقي: «وقد وجدت على نسخة بكتاب «معجم شيوخ» أبي الحسين محمد بن أحمد بن جميع الصيداوي، تخريج أبي محمد خلف بن محمد بن علي الواسطي، أربعة أجزاء، على كل جزء طبقة مذيلة بخط الحافظ زكي الدين أبي محمد المنذري، مؤلف الترغيب والترهيب، وصورته: (صحيح ذلك؛ كتبه:

(١) توجيه النظر إلى أصول الأثر (١/ ٤٧٨).

(٢) مقدمة محققي كتاب «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (١/ ٣٧٠).

عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري)، والطباق الأربعة مؤرخة بسنة خمس ثم ست وثلاثين وست مئة، بدار الحديث الكاملية بالقاهرة»[١].

*** وأما الأحاديث المفردة فمن ذلك**:

– قال ابن كثير: «ونزل عز الدين بن جماعة عن دار الحديث الكاملية، لصاحبه الشيخ عماد الدين الدمياطي، فدرّس فيها، وأورد حديث: «إنما الأعمال بالنيات» بسنده، وتكلم عليه»[٢].

– وقال ابن رُشيد السبتي، عن سماعه للحديث المسلسل بالأولية[٣]، من شيخه القطب القسطلاني: «وحدثنا به الشيخ قطب الدين أيضا سماعًا من لفظه، بمدرسة الحديث الكاملية، بالقاهرة المعزية، في السادس لصفر سنة خمس وثمانين وست مئة، وهو أول حديث سمعته من لفظه»[٤].

---

(١) ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر، لابن طولون، نقلا عن مجلة المجمع العلمي العربي، عدد شباط سنة ١٩٢٣م، جمادى الثانية ١٣٤١هـ. الجزء الثاني، ص٣٧.

(٢) البداية والنهاية (١٨/ ٤٠٠).

(٣) وهو حديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرحمة، ح(٤٩٤١)، والترمذي في جامعه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين ح(١٩٢٤)، كلاهما من طريق: سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، وزاد الترمذي: «الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله». وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) ملء العيبة (ص: ٣٠٦).

ثانيا: مجالس الإملاء:

الإملاء هو أعظم وظائف الحفاظ من أهل الحديث، قال الخطيب: «يستحب عقد المجالس لإملاء الحديث، لأن ذلك أعلى مراتب الراوين، ومن أحسن مذاهب المحدثين، مع ما فيه من جمال الدين، والاقتداء بسنن السلف الصالحين»(١).

فكان الفحول منهم يعقدون هذه المجالس؛ بأن يجلس الشيخ وحوله الطلاب ومعهم الأقلام والأوراق، فيتكلم الحافظ من هؤلاء ويملي من حفظه ما يفتح الله به، وكانوا يتخذون مستمليا، والمستملي: هو من يقوم بتبليغ كلام الشيخ للطلاب إذا كان المجلس كبيرا.

قال الكَتّاني: «وهو من وظائف العلماء قديما، خصوصا الحفاظ من أهل الحديث، في يوم من أيام الأسبوع، يوم الثلاثاء أو يوم الجمعة، وهو المستحب، كما يستحب أن يكون في المسجد لشرفهما، وطريقهم فيه: أن يكتب المستملي في أول القائمة: هذا مجلس أملاه شيخنا فلان، بجامع كذا، في يوم كذا، ويذكر التاريخ، ثم يورد المملي بأسانيده أحاديث وآثارا، ثم يفسر غريبها، ويورد من الفوائد المتعلقة بها بإسناد أو بدونه ما يختاره ويتيسر له»(٢).

وقد عقد كبار الحفاظ مثل هذه المجالس، التي كانت آية على تمكن العالم من محفوظاته وعلومه، وإن إماما كالدارقطني أملى كتابه العلل من

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٥٣).
(٢) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة (ص: ١٥٩).

حفظه. قال تلميذه أبو بكر البرقاني: كان الدارقطني يملي عليّ «العلل» من حفظه.

وعلق الذهبي قائلا: إن كان كتاب «العلل» الموجود قد أملاه الدارقطني من حفظه، كما دلت عليه هذه الحكاية، فهذا أمر عظيم، يُقضى به للدارقطني أنه أحفظ أهل الدنيا، وإن كان قد أملى بعضَه من حفظه فهذا ممكن(١).

وقد توارث المحدثون عقد مثل هذه المجالس، إلا أنها بمرور الزمن بدأت تقلُّ شيئا بعد شيء، حتى انقطعت بعد الحافظ زين الدين العراقي وولده – وقد تقدم أنهما كانا من شيوخ الكاملية – ثم عادت مرة أخرى وتم إحياؤها على يد تلميذه شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، وكان للكاملية نصيب من هذا الإحياء.

قال السيوطي: «وقد كان الإملاء دَرَس بعد ابن الصلاح، إلى أواخر أيام الحافظ أبي الفضل العراقي؛ فافتتحه سنة ست وتسعين وسبع مئة، فأملى أربع مئة مجلس وبضعة عشر مجلسا إلى سنة موته سنة ست وثمان مئة.

ثم أملى ولده إلى أن مات سنة ست وعشرين ست مئة مجلس وكسرا.

ثم أملى شيخ الإسلام ابن حجر إلى أن مات سنة ثنتين وخمسين أكثر من ألف مجلس»(٢).

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٥٥).
(٢) تدريب الراوي (٣/ ٥٣٣).

فلما أن أحيا الحافظ مجالس الإملاء بعد شيخه العراقي، أملى بخانِقاه بيبرس نحوًا من عشرين سنة، ثم انتقل – لما عزل عن منصب القضاء – إلى دار الحديث الكاملية؛ فأملى بها مئة وأربعة عشر مجلسا، ابتداؤها يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وثمان مئة، وانتهاؤها يوم الثلاثاء ثاني ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وثمان مئة.

فجملة ما أملى بالبيبرسية والكاملية: ألفُ مجلسٍ ومئةٌ وخمسون مجلسًا، تزيد قليلًا أو تنقُص قليلًا، يمليها، رضي الله عنه، من حفظه مهذبةً محررة، متقنة كثيرة الفوائد الحديثية، ويتحرى فيها العلو، مستفتحًا مجلسه بقراءة سورة الأعلى، والصلاة على رسول الله ﷺ، والدعاء له، وللحاضرين، والأئمة الماضين.

وقد سئل عن الحكمة في خصوص سورة الأعلى دون غيرها، فقال: قد تبعت في ذلك شيخنا العراقي، وفيها من المناسبة قوله: {سنقرئك فلا تنسى}، وقوله: {فذكر}، وقوله: {صحف إبراهيم وموسى}، وكان في الأمالي ينشد كثيرا من نظمه(١).

ولما حوَّل مجلس إملائه إلى الكاملية، أمر بتبييضها، وقرأ الشيخُ حسين الفتحي، أحد تلامذته، من تلقاء نفسه – أول يوم مِن إملائه بها – سورة الصَّف بصوت شجيٍّ، مع كونه بارعًا في القراءات، فبكى الناس، وكانت ساعةً مهولةً، ووقع ذلك موقعًا عظيمًا(٢).

(١) الجواهر والدرر (٢/ ٦٠٣).
(٢) الجواهر والدرر (٢/ ٥٨٤)، الضوء اللامع (١٤٣/٣).

وعادة المجلس أنه يكون غاصًّا بالأئمة والعلماء والفضلاء من الطلبة، وهم في الغالب زيادة على مئة وخمسين نفسا[١].

قال السخاوي: «ويقع فيه من الأبحاث والفوائد المهمة، والنكت النفيسة ما يفوق الوصف، وعليه من الوقار والهيبة والخفر والجلالة، ما لا أراه في غيره من مجالس العلماء»[٢].

وقال أيضًا مقارنًا بين مجالسه ومجالس شيخه العراقي: «ومن رام التفضيل بين مجالسه ومجالس شيخه، فلينظرهما، فالذي عندي – مع اعتقادي جلالة شيخه علما وعملا وإتقانا – أنها أمتن وأتقن، وكان يتفق له فيها نظير ما حكاه الشيخ ولي الدين عن والده: أنه ربما لا يشتغل بتخريجها إلا ليلة الثلاثاء، ولا تكمل إلا صبيحة يوم الثلاثاء، فيكون زمن اشتغاله بحفظها لحظة لطيفة من أول النهار قبل الإملاء، وما هذا إلا إعانة من الله عز وجل، وتأييد لهما»[٣].

قلت: فكان للكاملية بهذا دور عظيم، أن كانت محلا لمثل هذه المجالس المباركة المنورة، بنور حديث سيدنا رسول الله ﷺ.

ثالثا: المؤلفات والتصانيف:

لا ريب أن الحفاظ والمحدثين الذين تواردوا على التدريس بالكاملية، قد أخرجوا مئات المؤلفات والكتب، في شتى فروع الحديث وعلومه؛ من شروح حديثية، وتخاريج، وكتب في الرجال، والجرح والتعديل، والعلل، وكتابات في

(١) الجواهر والدرر (٢/ ٥٨٥).
(٢) الجواهر والدرر (٢/ ٥٨٦).
(٣) الجواهر والدرر (٢/ ٥٨٧).

علوم الحديث ومصطلحه، والسيرة النبوية، والفتاوى الحديثية، وكتب الترغيب والترهيب، وأحاديث الأحكام، وأجزاء صغيرة تعالج مسائل بعينها، وغير ذلك.

وإن من يطالع التراجم التفصيلية لهؤلا الأئمة الذين تولوا التدريس في الكاملية، لَيَعْلمُ بما لا خفاء فيه، ولا يب معه، مقدارَ وعظمةَ الدَّور، الذي قامت به تلك الدار، في خدمة السنة المطهرة.

رابعا: العلماء الذين تخرجوا فيها:

سبق وأن عقدتُ مبحثا خاصًّا للعلماء الذين درّسوا فيها، أما هنا فأذكر جماعة من أكابر العلماء الذين تعلموا وتخرجوا فيها، وقد كان من ثمرات ما ذكرته سابقا من عقد مجالس الإقراء والسماع، ومجالس التحديث والإملاء، ومن تطاير المؤلفات لشيوخ المدرسة الكاملية شرقا وغربا: أن كثر التلامذة والنبهاء الذين انتسبوا إليها وتخرجوا فيها؛ فتكون الكاملية بذلك قد أسهمت بصورة مباشرة في صناعة عقول هؤلاء، وتقديمهم إلى الأمة في صورة مشرقة من العلم والعمل.

وإن كنا على سبيل الإجمال نستطيع القول بأن كل من درَس الحديث في هذه الحقبة – من منتصف القرن السابع إلى منتصف القرن العاشر – كان للكاملية عليه فضلٌ بصورة مباشرة؛ وذلك بتعلمه فيها، أو بصورة غير مباشرة؛ وذلك بتعلمه على يد من تخرج في هذه المدرسة، وإن لم يُكتب له التدريسُ فيها بعد ذلك.

وثَمّة نفر من العلماء حازوا فضل الدراسة والتعلم فيها، ثم التدريس فيها بعد ذلك، كابن دقيق العيد والشرف الميدومي؛ وهما من تلامذة الحافظ

المنذري، وكذلك الشمس السخاوي الذي تعلم وطلب بالكاملية، ثم ولي مشيختها، وقد تقدمت الأحداث التي جرت له في هذا.

عَودٌ على بَدءٍ؛ أقول: كان انقطاعُ الحافظ المنذري مدةَ عشرين سنة في الكاملية، سببًا مباشرا في جعل طائفة من أكابر الحفاظ بعد ذلك أبناءً مباشرين للمدرسة الكاملية؛ ذلك أن الحافظ المنذري في وقته هو شيخ الحفاظ والمحدثين بالديار المصرية على الإطلاق، وأبرز هؤلاء الذي تخرّجوا في الكاملية على يديه:

ولده: محمد (ت ٦٤٣)، الذي عاش ثلاثين سنة فقط، ومع ذلك قال عنه الذهبي: الحافظ الذكي، أحد الشباب الفضلاء، ولو عاش لساد(١).

ومنهم: **شرف الدين الدِّمياطي** (ت ٧٠٥)، الإمام الكبير، حافظ وقته(٢)، والذي جعله المنذري معيدًا لدرسه، بعد وفاة ولده محمد، حتى قال الشرف الدمياطي عن شيخه الحافظ المنذري: «هو شيخي ومخرّجي، أتيته مبتدئا، وفارقته معيدًا له في الحديث»(٣).

قال التاج ابن السبكي: «وقد درّس – أي المنذري – بالآخرة في دار الحديث الكاملية، وكان لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة، حتى إنه كان له ولدٌ نجيب محدث فاضل، توفاه الله تعالى في حياته، ليضاعف له في حسناته، فصلى عليه الشيخُ داخلَ المدرسة، وشيّعه إلى بابها، ثم دمعت

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢١٩).
(٢) العبر (٤/ ١٣).
(٣) تاريخ الإسلام (١٤/ ٨٢٧).

عيناه، وقال: أودعتك يا ولدي لله، وفارقه، سمعت أبي رضي الله عنه، يحكي ذلك»[1].

وقال الصلاح الصفدي: «ومن مناقبه الصالحة: ما ذكره لي قاضي القضاة تقي الدين أبو الحسن علي السبكي قال: لما توفي ابنه محمد صبر واحتسب، ولم يخرج مع جنازته، بل اتبعه إلى باب المدرسة الكاملية لا غير، ولم يرح إلى قبره ولا كان يزوره، وكان ولده محمد معيدًا عنده في الكاملية، وكانت بينه وبين الشيخ شرف الدين الدمياطي صورة جرت العادة بها بين المتناظرين في الطلب والاشتغال، وكان الشيخ زكي الدين يعرف ما بينهما من التحاسد والعداوة، ولما مات محمد كان الشيخ شرف الدين في الحجاز، فلما وصل من الحجاز، جاء إليه الشيخ زكي الدين إلى بيته، فدقَّ عليه الباب، فقال: من؟ قال: أنا عبد العظيم، فخرج إليه مدهوشا؛ لحرمته وعظمته، فقال له: محمد مات، وقد وليتك مكانه في الإعادة، رحمهم الله أجمعين»[2].

ومن خريجي الكاملية: **ابن دقيق العيد**، شيخ الإسلام، وقاضي القضاة، والمجتهد المطلق، والذي ولي بعد ذلك مشيختها ستة أعوام، فتلامذته الذين تخرجوا عليه فيها، كذلك هم نتاجٌ وثمراتٌ لهذه المدرسة.

ومن هؤلاء الذين تخرجوا عليه ولزموه: الحافظ **أبو الفتح ابن سيد الناس** (ت ٧٣٣)، قال ابن حجر: «ولازم ابن دقيق العيد وتخرج عليه في أصول الفقه، وأعاد عنده، وكان يحبه ويؤثره، ويسمع كلامه، ويثني عليه»[3].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢٦٠).

(٢) الوافي بالوفيات (١٩/ ١٢).

(٣) الدرر الكامنة (٥/ ٤٧٧).

ومن خريجيها أيضا: **شرف الدين الميدومي**، الذي ولي مشيختها بعد ذلك، كما سبق.

قال الذهبي: «وكان خصيصًا بالحافظ أبي محمد المنذري، أكثر عنه، وولي خزن كتب الكاملية، وطلب لمشيختها فامتنع مدة، ثم وليها إلى أن مات».

قال: «وقد كان من العلماء الأتقياء، عارفا بالقراءات والحديث والنحو، وكان سليم القلب، ذا سمت وصلاح وهدى وخير، على سمت السلف، متصدرا للحديث طول نهاره مدرسا بالمدرسة الكاملية»[1].

ومن خريجيها: تلامذة إمام المحدثين في زمانه؛ الرشيد العطار، إذ إنه لما ولي الكاملية ستة أعوام، تخرج فيها عليه الجمُّ الغفير.

ومن آخر الأكابر المتخرجين في الكاملية: الحافظ **شمس الدين السخاوي**؛ الذي كان من النفر القليل الذين تعلموا في الكاملية، وعلّموا فيها.

وكما قلت آنفا، إن مئات العلماء الذين تعلموا الحديث في هذه القرون الثلاثة، من أبناء الديار المصرية، أو الذين وفدوا إليها: كانت لهم تلمذة لدار الحديث الكاملية مباشرة، أو بطريق غير مباشر، وما ذكرت هنا إلا أمثلة لبعض كبارهم، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

(١) تاريخ الإسلام (١٥/ ٥٠٤).

* وختاماً .. توارث العلم بين شيوخ الكاملية:

بِناءً على جميع ما تقدم ذكرُه، بدا واضحًا أن هذه المدرسةَ العريقة، امتدت ظلالُها الوارفة، وثمارها اليانعة، وأينع غرسُها الباسق، عبر ثلاثة قرون أو يزيد؛ وهي تخدم الدين، من خلال ركنه الركين، والفرع الذي لا يغني عن الأصل، ولا يستغني عنه الأصل؛ السنة النبوية الشريفة.

ومن اللطائف أن أعطى الله عز وجل عددًا من شيوخها حظًّا من توريث العلم فيمن جاء بعدهم من الأبناء والحفدة، وهذا باب عظيم من الفضل الإلهي، أن يجعل في ذرية العالم من يخلفه، وينسج على منواله ويسلك مسلكه.

فرأينا أن الحافظ المنذري ولي مشيختها، وفي الوقت ذاته كان ولده الحافظ محمد هو معيدَ درسه.

وأن الحافظ أبا عمرو ابن سيد الناس ولي مشيختها، وتولى ولده الحافظ أبو الفتح وظيفة الإعادة في زمن مشيخة الإمام ابن دقيق العيد.

وأن ثلاثة في نسَق تولَّوا مشيختها؛ وهم: الجد سراج الدين ابن الملقن، والابن نور الدين ابن الملقن، والحفيد جلال الدين ابن الملقن.

وأن واحدًا من شيوخها تولى ولداه من بعده مشيختها، وهو الكمال محمد ابن إمام الكاملية، وولداه: أحمد وعبد الرحمن.

وأن واحدًا وولدَه وأخاه تولَّوا مشيختها؛ وهم: أبو الخطاب بن دحية، وأخوه أبو عمرو بن دحية، وولد أبي الخطاب: شرف الدين بن دحية.

وأن واحدًا وولدَه تولَّيا مشيختها، وهما الحافظ زين الدين العراقي، وولده الحافظ أبو زرعة العراقي.

وكذلك قاضي القضاة البدر بن جماعة، وولده قاضي القضاة عز الدين بن جماعة.

وأن أخوين توليا‌ها؛ هما: قطب الدين القسطلاني، وأخوه تاج الدين.

وأن خمسة في نسق تولَّوا إمامتها؛ وهم: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، تولى إمامتها وكذلك تولاها أبوه وجده، وأيضا ولده وحفيده، فهم خمسة في نسق واحد. وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

الخاتمة

بعد هذا التَّطواف في تاريخ هذه البقعة العريقة (دار الحديث الكاملية)، خلصت إلى عدد من النتائج، ألخصها فيما يلي:

١- تجلى لنا عظم الدَّور الذي قامت (دار الحديث الكاملية) على مدى أكثر من ثلاثة قرون – من سنة ٦٢١هـ إلى منتصف القرن العاشر – في خدمة السنة النبوية؛ عن طريق تدريس كبار علماء الحديث فيها، وما أنتجوه من تآليف متنوعة، وما عقدوه من مجالس السماع والإقراء، والتحديث والإملاء، وتخريج المئات من الطلاب النبهاء، الذين صاروا بعد ذلك من أكابر العلماء.

٢- أن هذا النوع من المدارس، كان لونًا من ألوان العمل المؤسسي الخيري، الذي تعاون في إنجاحه طوائف المجتمع المختلفة: الملوك والأمراء وكبار موظفي الدولة والعلماء والتجار.

٣- أن السبب الأكثر أثرا في إنجاحها هو اعتمادها على ميزانية مستقلة كبيرة، معتمدة في ذلك على أوقافها المخصصة لها، وما بدأ الضعف يدب إليها، إلا بعد أن جرى الاعتداء على أوقافها.

٤- أننا إذا أردنا نهضة علمية معاصرة، كتلك التي كانت في (دار الحديث الكاملية) قديما: فلا بد من العودة مرة أخرى إلى نظم الوقف القديم، في صورة معاصرة، لضمان الإنفاق المالي الكبير على البحوث العلمية، واستقدام الأساتذة الزائرين من كل أنحاء العالم، وعقد المؤتمرات الفاعلة.

٥- أن المعيار الأول والأخير في اختيار المدرسين فيها، كان هو: (الكفاءة العلمية)؛ لذا وجدنا أكابر الحفاظ في كل وقت هم شيوخها؛

كالمنـذري، والرشـيد العطـار، وابـن دقيـق العيـد، والعراقـي، وابـن حجـر، والسخاوي، وغيرهم، مما جعل لها الريادة في معظم أوقاتها.

٦- حينما وُجد خللٌ في معيار الاختيار -كالذي حدث مع الحافظ السخاوي - وجدنا الوهن والضعف يدب إليها دبيبا، مما عجّل بسرعة انتهاء دورها الفعّال في المجتمع.

مما يجعلنا متيقظين دائما أنه حيثما وضع أرباب الكفاءة، في أماكنهم، وجد النجاح، وحيثما وجدت المجاملة والوساطة، وجد الإخفاق والفشل.

٧- سبقُ الحضارة الإسلامية للنظم التي عرفتها المجتمعات الإنسانية في العصر الحديث؛ فالسكن الداخلي للطلاب، واستقدام الأستاذ الزائر، ومجانية التعليم، وحرية التلقي، وعدم التمييز الجنسي أو العرقي: كل هذا وجدناه جليا واضحا حينما تعرفنا على تاريخ الدار الكاملية.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلِّم، والحمد لله رب العالمين

فهرس المراجع والمصادر

- الأعلام، لخير الدين الزركلي (ت: ١٣٩٦)، ط: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

- إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر العسقلاني، (ت: ٨٥٢هـ) تحقيق : د/محمد عبد المعيد خان، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- البداية والنهاية، لعماد الدين ابن كثير (ت:٧٧٤)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، ط: هجر للطباعة والنشر، الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: المكتبة العصرية، لبنان.

- تاج العروس من جواهر القاموس، لمرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥)، تحقيق: مجموعة من العلماء، ط: مطبعة حكومة الكويت، الثانية، ١٤٠٧-١٩٨٧م.

- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، للذهبي، تحقيق: د. بشار عوّاد معروف، ط: دار الغرب الإسلامي، الأولى، ٢٠٠٣ م.

- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد عوامة، ط: دار المنهاج، جدة، الأولى، ٢٠١٦م.

- تذكرة الحفاظ، للذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، ط: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان،الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

- توجيه النظر إلى أصول الأثر، لطاهر الجزائري، (ت: ١٣٣٨هـ)، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، ط: دار السلام، القاهرة، الثانية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

- الجامع الكبير = سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: د. محمود الطحان، ط: مكتبة المعارف، الرياض.

- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، للسخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد، ط: دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، للسيوطي (ت : ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي، الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.

- الخطط التوفيقية، لعلي مبارك باشا، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

- دور الحديث في العالم الإسلامي، لحسين وكاك، ط: جامعة القرويين، منشورات كلية الشريعةبأكادير، الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

– الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لابن عبد الملك المراكشي (ت: ٧٠٣ هـ)، حققة وعلق عليه: الدكتور إحسان عباس، الدكتور محمد بن شريفة، الدكتور بشار عواد معروف، ط: دار الغرب الإسلامي، تونس، الأولى، ٢٠١٢م.

– ذيل تذكرة الحفاظ، للحسيني، (ت: ٧٦٥هـ)، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

– ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، للتقي الفاسي (ت: ٨٣٢هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

– ذيل الدرر الكامنة، لابن حجر، تحقيق: د/ عدنان درويش، ط: معهد المخطوطات العربية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

– ذيل مرآة الزمان، لليونيني (ت: ٧٢٦ هـ)، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الثانية، ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م.

– الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، لمحمد بن جعفر الكتاني (ت:١٣٤٥هـ)، تحقيق: محمد المنتصر محمد الزمزمي الكتاني، ط: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الرابعة، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.

– سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط، ومحَمَّد كامِل قره بللي، ط: دار الرسالة العالمية، الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩ م.

– سير أعلام النبلاء، لأبي عبد الله الذَهَبي (ت ٧٤٨)، تحقيق: مجموعة بإشراف شعيب الأرنؤوط، ط: مؤسسة الرسالة، الثالثة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)، ط: دار ابن كثير دمشق، بيروت، الأولى ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي (ت ٩٠٢)، ط: منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

- طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (ت: ٧٧١هـ)، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، ط: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الثانية، ١٤١٣هـ.

- العبر في خبر من غبر، للذهبي، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط: دار الكتب العلمية.

- الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، للغزي (ت: ١٠٦١هـ)، تحقيق: خليل المنصور، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.

- لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، ط: دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م.

- مجمع الآداب في معجم الألقاب، لابن الفوطي (ت: ٧٢٣ هـ)، تحقيق: محمد الكاظم، ط: مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، الأولى، ١٤١٦هـ.

- المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، ط: دار المعرفة، بيروت.

- معجم الشيوخ الكبير، للذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة، ط: مكتبة الصديق، الطائف - المملكة العربية السعودية، الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

- معجم الشيوخ، لتاج الدين السبكي (ت: ٧٧١هـ)، تخريج: شمس الدين الصالحي، تحقيق: الدكتور بشار عواد، رائد يوسف العنبكي، مصطفى إسماعيل الأعظمي، ط: دار الغرب الإسلامي، الأولى ٢٠٠٤م.

- معيد النعم ومبيد النقم، للسبكي (ت: ٧٧١ هـ)، ط: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.

- ملء العيبة، بما جُمع بطول الغَيبة، في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطَيبة، لابن رُشيد الفهري السبتي (ت: ٧٢١هـ)، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

- المنذري وكتابه التكملة لوفيات النقلة، بشار عواد معروف، ط: جامعة بغداد، د ن.

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ)، تحقيق: د.محمد محمد أمين، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لتقي الدين المقريزي (ت: ٨٤٥هـ)، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٨هـ.

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط: دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، لبنان.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ)، ط: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

- نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، لابن دُقْماق (ت: ٨٠٩ هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور سمير طبارة، ط: المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

- نظم العقيان في أعيان الأعيان، للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: فيليب حتي، ط: المكتبة العلمية، بيروت.

- الوافي بالوفيات، للصفدي (ت: ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط: دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.